TAG - 811 - 71/09

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد
تلمسان

كلية الآداب والعلوم الإنسانية
و العلوم الاجتماعية

قسم الثقافة الشعبية
تخصص: أدب شعبي

سجل تحت رقم 1/1852
بتاريخ في 31 ماي 2008
الرقم

شعر المقاومة الملحون في منطقة الغرب الجزائري

دراسة فنية تحليلية

مذكرة جامعية لنيل شهادة الماجستير

إعداد الطالب:
– المنقاري محمد

إشراف:
– أ.د: شايف عكاشة

أعضاء اللجنة :

– د. سعيدي محمد	رئيسا	جامعة تلمسان
– أ.د. شايف عكاشة	مشرفا ومقررا	جامعة تلمسان
– د: مصطفى أوشاطر	عضوا	جامعة تلمسان
– د. زريوح عبد الحق	عضوا	جامعة تلمسان

السنة الجامعية 2005/2004 م
1424 - 1425 هـ

الإهداء

الى كل من مدّ لي يد العون والمساعدة لإنجاز هذا العمل

وفاء لهم وإنصافا الجهد ثمرة.

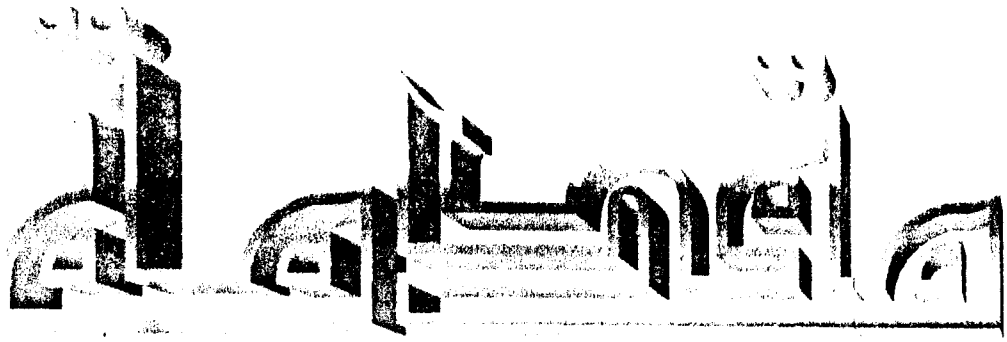

يشكل الشعر الملحون في الجزائر فضاء ثقافيا خصبا و متنوعا، بحيث لم يترك مجالا من مجالات الحياة إلا و أشار إليها من قريب أو بعيد، خاصة في المراحل العصيبة التي مر بها الشعب الجزائري إبان الاحتلال الأجنبي.

إن الإنتاج الغزير لهذا النوع من الشعر، لم يحظ ببحوث و دراسات جديرة بالاهتمام، و ما وجد منه رغم قلته فهو يتسم بالسطحية التي لا تشبع رغبة الباحث، و ذلك بالمقارنة مع الدراسات التي أقيمت حول الشعر الرسمي، و لعل ذلك يعود لعدة عوامل نذكر منها:

أ- حداثة العهد بالشعر الملحون، ليس وجودا بل دراسة و تحليلا، إذ ذلك يتطلب جهدا كبيرا في جمع المأثور، و عملية تحقيق دقيقة، قبل دراسته.

و ليس من نافلة القول الإشارة إلى ضياع الشيء الكثير من هذه الذاكرة الاجتماعية، بحيث توفي الكثير من أصحابها، و ما بقي منهم هو طاعن في السن، يعيش في مناطق نائية معزولة، لا يكاد يعرف أو يعرّف.

ب- ضرورة العناية باللغة العربية، بعد المراحل العصيبة التي مرت بها الجزائر، و ما تعرضت له من اضطهاد و استعباد، و محاولة الاحتلال لمسخ لغتها، بل لكيانها و وجودها.

كان من الضروري على الباحثين بعث اللغة العربية، و إعطائها المكانة الحقيقية التي تستحقها، و ما حركة التعريب التي شهدتها الجزائر في السبعينيات خير دليل على صحة ما نذهب إليه.

ت- خشية الوصايا من تذكية اللهجات على حساب الفصحى، مما يتعارض مع فكرة الوحدة الثقافية و اللغوية للأمة، مما جعل إهمال هذا الإرث الشعبي قد يكون متعمدا لأسباب سياسية أكثر منها علمية.

ث- عملية تقييم سطحي لهذا النوع من الشعر، رأته غير مؤهلا للدراسة ظنا أنه يخلو من القيم الجمالية و الفنية مقارنة بالشعر الرسمي.

قد تكون هذه بعض العوامل المتسببة في إهمال هذا النوع من الشعر، و الحقيقة هي عوامل غير موضوعية، فالباحث في مجال الشعر الملحون، لا يرمي من وراء ذلك منافسة الشعر الرسمي، ليحل محله، أو الترويج لفكرة إحلال العامية محل الفصحى.

نحن نريد أن يدرس هذا الإرث الاجتماعي، كما تدرس جميع آداب الأمم، فهو يشكل واقعا اجتماعيا له علاقة بوجدان المجتمع الجزائري.

لقد أبدع الشعر الشعبي الجزائري في ظل قيم جمالية ورثها عن الشعر العربي القديم، متميزا بمقومات خاصة به مزجت بين الفصحى أو اللهجات المحلية، عربية كانت أو أمازيغية.

استطاع شعراء الملحون تطويع اللهجات المحلية، ليجعلوا منها لغة شعر متميزة بمذاق فني، و متعة جمالية خاصة، الأمر الذي أعطاه مكانة متميزة في نفوس الجزائريين.

لقد واكب الشعر الشعبي تطور المقاومة الجزائرية، فارتبط ارتباطا عضويا بشرائح المجتمع، مصورا الظروف القاسية التي عاشها الشعب الجزائري في ظل الاحتلال الأجنبي، معتمدا في ذلك على القدرة الربانية، متقربا إلى الله يدعوه و يرجوه مستغفرا تائبا.

يعود اختياري لهذا الموضوع في الأساس إلى أسباب مختلفة ترجع في جوهرها إلى إهمال الباحثين لهذا الإرث الاجتماعي و الثقافي الجدير بالاهتمام، و عنايتهم بالشعر الرسمي الثوري، شكلا و مضمونا، ذلك أن الثورة المباركة قد حققت الهدف المنشود، في حين عجزت المقومات التي خاضها الشعب الجزائري عن ذلك، و قد فاتهم أنها كانت إرهاصات حقيقية للثورة المباركة.

كما يعود الاختيار لأسباب ذاتية بحته، تعود إلى الماضي القريب، و نحن نحضر الأفراح، حيث تحدث فينا الأغنية الشعبية الريفية متعة خاصة و طعما لا نظير له.

أما المنهج الذي اخترناه لهذا البحث فهو يجمع بين الرؤية التاريخية و التحليلية، ذلك أن هذا النوع من الشعر- أعني شعر المقاومة- قد أصبح سجلا تاريخيا عكس الأحداث و الوقائع دون مبالغة أو تهويل بل بصدق و أمانة.

لقد حاولت أن أتتبع هذا النوع الفني، عبر المقاومات التي خاضها الشعب الجزائري أثناء الاحتلال الأجنبي، و أنا لا أدعي استيفاء البحث لجميع جوانب الموضوع، نظرا لامتداد الحقبة الزمنية، و تداخل الأحداث، و مع ذلك فإن كنت قد أثرت في هذا البحث قضايا أو تساؤلات، تكون محل اهتمام الباحثين مستقبلا، فهو من باب أخذ الجزء خير من ترك الكل.

لقد قسمت البحث إلى خمسة فصول انتهت بخاتمة هي عصارة مضامين البحث. ففي الفصل الأول حاولت أن أرصد مواقع الشعر الملحون أثناء المقاومة الشعبية، و ذلك من مختلف الجوانب فكان تنظيرا أكثر منه تطبيقا.

أما في الفصل الثاني، فقد أردت تغطية بعض الجوانب السياسية إبان الاحتلال الأجنبي، و مواقف الشعراء منها، بل و ما لعبه الشعر الملحون من دور بارز في إذكاء نار المقاومة، و توعية شرائح المجتمع، و تحذيرهم من الخطر الدائم الذي يحيط بهم من جراء الاحتلال الأجنبي.

أما في الفصل الثالث: فقد أردنا تسليط الضوء على الظروف الاجتماعية القاسية التي عاشها المجتمع الجزائري في فترة الاحتلال، و ذلك من خلال نقل الشعر الملحون لهذا الواقع المر، غير مكتف بذلك بل داعيا إلى الصبر و الثبات في تلك الظروف الحالكة.

و في الفصل الرابع، حاولنا أن ننقل الأبعاد الثقافية التي عكسها الشعر الملحون، مركزين على اللغة، باعتبارها من أبرز العناصر المكونة للهوية الجزائرية، و ما هو موقف الاحتلال منها.

أما في الفصل الخامس، فقد وقفنا عند الدور البارز الذي لعبه الدين الإسلامي في المحافظة على الشخصية الجزائرية، و تعلق شعراء الملحون بعقيدتهم المحركة لكل نوع من أنواع المقاومة.

و في الختام أتقدم بالشكر الجزيل، لكل الذين قدموا لي يد المساعدة، سواء بمراجعهم أو كتبهم أو بنصائحهم و تشجيعاتهم و على رأس هؤلاء الدكتور المحترم السيد:"شايف عكاشة".

و الله ولي التوفيق

لقد أصبح من المسلمات القول بأن الشعر الملحون هو من أكثر الفنون تعبيرا و نقلا للوجدان الشعبي و تحديدا للملامح الثقافية عند الشعب الجزائري، حيث عرفت بلاد المغرب العربي قواسم مشتركة في شتى الأشكال و الفنون الشعبية نظرا لارتباطها بمراحل تاريخية عكست وضعا ثقافيا و اجتماعيا يكاد يكون متشابها، و لعل أول ما يلاحظه الدارس لهذا النوع من الشعر بخصوص مضامينه ووظيفته ما لعبه من دور سياسي هام يتعلق بحديثه عن قيم المجتمع و هويته، و بما جسده من مواقف في مقاومة للاحتلال الأجنبي.

لقد استطاعت السلطات الفرنسية في الجزائر القضاء على المؤسسات الرسمية ابتداء من سنة 1830 بل ملاحقة رجال المقاومة و الدين و المثقفين و أضحت الجزائر بدون منائر، و بالتالي استطاع الاستعمار أن يهزم المجتمع الجزائري في مواقع كثيرة، و لكنه عجز كل العجز لإلحاق الهزيمة بالشعب الجزائري في جوانبه النفسية و الفكرية.

لقد ظل المجتمع الجزائري متمسكا بأصالته و عقيدته تمسكا عنيدا، محايدا منقوقعا حفاظا على الذات.

يتميز المجتمع الجزائري بخصوصيات تميزه عن غيره من المجتمعات العربية فهو بالإضافة إلى اشتراكه مع هذه المجتمعات في التاريخ و الدين و الأصالة فهو يعرف بظاهرة أو لنقل

نظرية العناد بكل أشكاله الإيجابية و السلبية إذ يوظف العناد في المقاومة حين تنبعث من الحاكم رائحة الجور، و لعل الاحتلال الفرنسي قد اتخذ لنفسه سياسة الظلم و الاستبداد منذ أن دنست أقدامه أرض الجزائر.

و يعتبر المأثور الشعبي من بين هذه الخصوصيات التي تميز المجتمع الجزائري عن غيره، و الشعر الملحون هو من أبرز ما يميز هذا المأثور، إذ رصد مختلف الوقائع التي شهدتها الجزائر عبر حقب تاريخية مختلفة و خاصة عندما يفقد المجتمع الجزائري أقدس مقوماته و المتمثلة في حريته، "فلم يجد الشعب متنفسا لمكنوناته إلا القصيدة الشعبية تسير بها الركبان، و تتجمع حول رواتها الحلقات، يتغنى بها المداح في كل شعب من شعاب الأرض الجريحة ليضعها ضمادا على شغاف قلب مكلوم"[1].

إن المقاومات التي خاضها الشعب الجزائري طيلة تواجد الاحتلال، و ما نتج عنها من اضطهاد قد هز حياة الناس في جوانبها المتعددة، كما هز مشاعرهم و ضمائرهم هزا عنيفا و تجسد كل ذلك في مختلف وسائلهم التعبيرية و خاصة الشعر الشعبي الملحون، حيث قام بدور الدفاع عن حمى الوطن و إبراز البطولات الرافضة لكل هيمنة و احتلال."فالأدب الجزائري يمكن منذ البداية أن يؤكد حضور النص الثوري في كل

[1]- صالح خرفي، شعر المقاومة الجزائرية- الشركة الوطنية للنشر و التوزيع (بدون تاريخ) - ص 21

المراحل التي مرت بها مقاومة الشعب الجزائري، و قد عرفت ثوراته المختلفة هذه المقاومة، و هذه الثورات التي نجدها موزعة على أرجاء الوطن"[2].

من هنا فان الشعر الشعبي عامة و المقاوم خاصة هو قلب الأمة النابض و ذرعها الواقي، و محورها الأساسي، بل الوعاء و المستودع الذي يحمل آمالها و آلامها.

فيجسد سعادتها و شقاءها، يترصد الأحداث و يسجل الوقائع داعيا إلى تضامنها و وحدتها. لذا بات من الواجب أن تتكاثف كل عناصر المجتمع لأجل إحيائه و المحافظة عليه، فهو الذي يبعث في الأمة الروح الوطنية فيوقظ ضميرها و ينشئ جيلا يمعن النظر في تاريخه. يستخلص منه العبر فيتبن الماضي على ضوء المستقبل.

ليس من نافلة القول إذا قلنا: إن الشعر الشعبي يؤثر تأثيرا واضحا في مظاهر الحياة الاجتماعية من سلوك ومعتقدات ،فهو بوابة الإنسان إلى معرفة أسرار مجتمعه يكشف له المغزى من كل سلوك نابع من الوعي أو اللاشعور الجمعي ، من هنا ندرك أهمية الشعر الشعبي فيه ندرك قيمة العمل و أهدافه فالحاضر هو نتيجة تفاعل عشرات الأجيال بل الآلاف مع بيئتها الطبيعية و الاجتماعية .

إن الشعر الشعبي ينبع من الماضي السحيق، وينم عن القوى المبدعة التي أنتجته فهو يسمح بالتغلغل في الأصول الأولى التي أنتجته إبداعا وفكرا.

---

[2]- العربي دحو - بعض النماذج الوطنية في الشعر الشعبي الأوراسي خلال الثورة التحريرية- ديوان المطبوعات الجامعية-الجزائر 1986 - ص 11.

إذا وقفنا عند نظرة المجتمع للشعر الشعبي نجدها تختلف من فئة لأخرى ، وعلى العموم فإن نظرة التهميش هي السائدة ، بل يعتبره البعض ضربا من ضروب التريض و التسلية و هو أمر يعود إلى عدة أسباب نذكر منها:

1- عدم إدراك وظيفة الشعر الشعبي في المجتمع، و أهميته تاريخيا.

2- الاهتمام المتزايد بالتقدم العلمي و التكنولوجي و الانبهار بالمستجدات العلمية للعصر.

3- قلة المحاولات التي تقرب الفرد من ثقافته الشعبية شرحا و تحليلا.

4- حصر الثقافة الشعبية في خصوصيات معينة و محددة.

لتقريب الشعر الشعبي من المجتمع يجب التخلص من العوامل الذاتية، مع تصحيح الكثير من المفاهيم المغلوطة، و هذا التصحيح لن يكون ما لم يكن الشعر الشعبي في متناول الجميع مع تحسيس المجتمع بأنه هو صانع هذا الشعر بل هو مادته الخام إنه قطعة منه.

يتطلب الواقع اليوم جمع الشعر الشعبي الوطني وفق منهجية علمية حديثة مع التأكيد على أهميته القصوى سلبا و إيجابا، فقد يكون عامل توحيد و رص للصف كما كان في الماضي، و هذا لن يتسنى إلا إذا جمع و درس من طرف جزائريين مخلصين، و قد يكون عاملا من عوامل الهدم إذا جمع و درس من طرف غيرنا.

إذا كان الشعر الشعبي ضرورة ملحة لما له من أهمية بالغة على مستوى الأفراد فإن الواجب يدفع إلى البحث عن موقع هذا الشعر في المؤسسات التربوية، إذ نسجل التهميش شبه الكلي لهذا النوع من الشعر داخل المؤسسة التربوية، و نحن لا ننكر ما للشعر الفصيح من أهمية قصوى، و لكن نكاد نجزم أن المادة الأساسية التي يغترف منها الشعر الفصيح هي نفسها المادة التي ينهل منها الشعر الشعبي و يعود الاختلاف إلى الموروث الثقافي لكل شاعر شعبي كان أو فصيح.

إنه لمن الضروري أن يكون الشعر الملحون، و بخاصة شعر المقاومة مادة تثقيفية تغرس في الطفل داخل مؤسسته التربوية بذور الأمل و تجسد فيه القيم الإنسانية النبيلة، فيدرك الشاعر لخضر بن خلوف كما أدرك شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكرياء.

إن الطفل الذي يشب على حب وطنه و العمل من أجل رقيه و تطوره حتما يشيب على ذلك، فالمتصفح لكتب الدراسة اليوم داخل المؤسسة التربوية لا يكاد يلمس أثرا للشعر الشعبي الملحون، و هنا لا نفوت الفرصة لكي نشير إلى ضرورة إخضاع المربي داخل هذه المؤسسات إلى تكوين خاص يؤطره دكاترة جامعيون متخصصون في هذا المجال، و ما ينطبق على الشعر ينطبق أيضا على باقي الفنون التعبيرية الشعبية الأخرى كالقصة و الحكاية و الأمثال.

إن التقدم العلمي و التكنولوجي المتزايد جعل الكثير من القصائد الشعبية تعلن بداية زوالها، فهل تصمد باقي القصائد الشعبية أمام زحف الإعلام الآلي و الإنترنيت، هذه الموجة التي قضت على كل الحدود الجغرافية للبلدان.

لقد قضت هذه الموجة على الكثير من خصوصيات المجتمع الجزائري، حيث تمزقت الأواصر الاجتماعية فطغت النزعة الفردية المادية على المجتمع، كما بدأ الانقطاع بين جيل الخلف و السلف مع تحميل كل طرف الآخر مسؤولية التقهقر، و الأخطر من ذلك هو تذبذب الشعور بالوحدة و الانتماء لثقافة أصيلة ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ.

من هنا يتطلب التراث الشعبي بصفة عامة و الشعر الملحون المقاوم بصفة خاصة وقفة متمحصة و متفحصة فهو كنز من كنوز المجتمع "الشعر الملحون كان يصور دائما الفعل الشعبي الذي أثارته الوقائع السياسية الهامة، منذ دخول الفرنسيين الجزائر عام 1830 مما أصبح شاهدا على مأساة الشعب الحقيقية و آثار المقاومة الحقيقية من طرف القوى الوطنية و في قلبها نداء الشاعر إلى النضال المسلح"[3].

من هنا وجب علينا بعث ثقافتنا الشعبية بما فيها الشعر الملحون مستفيدين من كل ما تقدمه لنا الدراسات الحديثة مستخدمين الوسائل التكنولوجية الحديثة، و هو أمر يحمينا من المسخ الثقافي الذي يتربص بنا، فإذا كنا نعيش نوعا من التغريب الثقافي في هذا المجال

[3]- دور الشاعر الملحون في الكفاح الشعبي -فلاديمير سوكورو و يوغلتون- المجاهد الأسبوعي- العدد 670-1973- ص27.

فهو يعود إلى الحقبة الاستعمارية التي أرادت مسخ كل شكل من أشكال الأصالة، كما أن التطور الصناعي و الانفتاح خلق أزمة حادة بين الثقافة التقليدية و الثقافة العصرية.

إن ظاهرة العولمة اليوم تسعى إلى إيجاد ثقافة عالمية موحدة تلغي كل الثقافات المحلية و خصوصيات المجتمعات، و بالتالي وجب على هذه المجتمعات الدفاع عن نفسها بامتلاك و تحديد معالم ثقافتها الخاصة التي تميزها عن غيرها، فالعولمة لا تكتسح إلا المجتمعات التي فقدت خصوصياتها الثقافية.

إن الثقافة الشعبية يجب أن تتحول إلى قضية وطنية ذات حضور مستمر داخل كل المؤسسات التربوية و الثقافية، مع ضرورة تصحيح المفاهيم المغلوطة و الغامضة التي تكتنف ثقافتنا الشعبية، و بالتالي تكون الخطوة الأولى في هذا المجال هي جمع التراث الشعبي و تحديد معالمه ثم التفرغ لعملية البحث و الدراسة، و هو أمر غير كاف بل لابد من تكثيف الملتقيات التي تجمع أهل الاختصاص و الخروج بنتائج جد دقيقة تحدد معالم الثقافة الشعبية الجزائرية و تأطيرها داخل المجتمع، دون أن ننسى إصدار المجلات الخاصة بهذا الشأن و لما تخصيص مواقع إنترنيت خاصة بالثقافة الشعبية الجزائرية.

إنه لمن المفيد أن نتمثل التراث الشعبي و نعيشه فعلينا في حياتنا اليومية دون الاكتفاء بعملية التنظير فحسب.

تلعب الثقافة الشعبية المتنوعة الدور الفعال في ربط الجانب الثقافي بالجانب الاجتماعي فالمورث الثقافي يلازم المجتمع و هو شكل من أشكال التعبير الحي، فهي تمثل قوة دافعة تبعث الثقة في النفس و تفجر كوامنها و تحافظ على تماسكها و وحدتها فهي تربط الماضي بالحاضر.

تلعب النصوص الشعرية الملحونة دور الاتصال بين الأجيال، بل تبقى أكثر الوسائل التعبيرية تذوقا و إشباعا للمخيلة، لقد أبدع الشاعر الشعبي عبر مختلف الأحقاب التي مرت بها الجزائر، و نقصد دائما بالشاعر الشعبي "الشعر الملحون" فهو متميز بمقوماته الخاصة و خصوصياته الشعرية، إذ طوع الشعراء لغة اللهجات المحلية و جعلوا منها لغة إبداع، الأمر الذي منح الشعر الملحون مكانة خاصة في نفوس الجزائريين.

لقد استطاع الأوروبيون الانتباه إلى خطورة التقدم الصناعي و التكنولوجي في القضاء على كل المأثورات و التقاليد، و لذا كان لابد من الإسراع في جمع التراث دراسة و تحليلا "فقد ارتفعت صيحة نفر من المفكرين الأوروبيين من أهل الأدب و الفن في مطلع القرن التاسع عشر تنذر بأن عصر الماكينات سيقضي على التقاليد و العادات العريقة، ذلك أن الثورات الصناعية التي اجتاحت أوروبا في ذلك الحين قد خلقت مدنها خلقا جديدا و جعلت سكانها عادات تختلف عن عادات الفلاحين"[4].

---

[4]- الفنون الشعبية- رشدي صالح- القاهرة 1961- ص05.

تزخر الجزائر بتراث شعبي ضخم يتطلب إنقاذه اليوم قبل الغد، خاصة أمام التقدم التكنولوجي و الصناعي و ظاهرة العولمة التي قد تلغي خصوصيات كل مجتمع و بالتالي تصبح مميزات و خصوصيات الشعوب في خطر، لذا وجب الاهتمام بالتراث الشعبي بحثا و دراسة و تحليلا و جعله سلوكا يوميا يميز المجتمعات بعضها عن بعض.

إن المتتبع لظاهرة المقاومة في الشعر الملحون كموضوع بحث يجد نفسه أمام تداخل المصطلحات التي تحمل دلالات مختلفة، و التي يبدو لأول وهلة أنها تحمل نفس الدلالة، كونها متداخلة لدرجة يصعب التفريق بينها و هي على وجه التحديد: المقاومة، الثورة، الحرب.

إن ما هو أقرب إلى الصواب و الحقيقة، أن كل مصطلح يحمل دلالات معينة تميزه عن باقي المصطلحات الأخرى، و نحن لا نريد أن نخوض في هذه التفرقة التي قد تكون مجال بحث آخر، و لكن نريد الإشارة فقط إلى كونها جميعا تتعلق بدخيل يطلق عليه الاستعمار، و ذلك في أي مرحلة من مراحل تاريخه الممتد في الزمان و المكان، و بالتالي سواء مرحلة الدخول أو الوجود أو حتى مرحلة الخروج من المنطقة المستعمرة، و هكذا يمكن التفرقة بين أدب الحرب و أدب المقاومة[1].

يبدون أن كل من مصطلح الحرب أو المقاومة يحتاج إلى مرتكزات ثلاثة هي:

-العنصر البشري -السلاح -القتال.

إن عملية امتزاج هذه المعطيات الثلاثة هي التي تعطي البعد الحقيقي للحرب أو المقاومة، و بالتالي فانعدام عنصر واحد من هذه العناصر يفقد الكلمة بعدها الحقيقي و مدلولها الصحيح، و قد تعتمد العناصر المذكورة في أي حال من أحوالها على ما يسمى بالدافع

1- بعض النماذج الوطنية في الشعر الشعبي الأوراسي خلال الثورة التحريرية. العربي دحو. ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر - ص12.

أو المحرك، فهذا الأخير هو الذي يدفع المقاوم إلى الثبات، و قد يكون عاملا نفسيا أو عقيدة أو قناعة، و بالتالي يعطيه الاستمرارية و يبعث فيه الطاقة المحركة، و مهما يكن هذا المحرك إيديولوجيا أو روحيا كما أسلفنا فلابد أن يتوفر عند المقاوم، لأنه يحدد الهدف و يرسم الطريق أمامه فيعطيه الاستمرارية، و إن كنا نرى أن الدافع الروحي أقوى من كل الدوافع الأخرى، و خاصة من حيث الفاعلية لأن الهدف فيه يبعث كل الطاقات الكامنة في الفرد مستخرجا كل دوافع القتال فهو يرتبط ارتباطا وثيقا بالمعاش و المعاد.

و هكذا لا نبالغ إن قلنا أن الباعث أو المحرك هو الذي يحدد مدلول المصطلحات السابقة.

إن الباحث بعد تمحصه لتاريخ الجزائر عبر الأزمنة و العصور، يجد الشعب الجزائري يستأنس لفظ المقاومة بكل شموليته، و لفظ الجهاد بجميع خصوصياته، لأن النفس الجزائرية بطبيعتها تميل إلى الدفاع و ليس العدوان كما تميل إلى الجهاد و ليس التسليط، فالتاريخ يسجل أن الشعب الجزائري كان دوما مدافعا عن كيانه و أرضه، و لم يذكر و لو مرة واحدة أنه اجتاح أرضا غريبة عنه أو تعدى على أرض تجاوزت حدوده الجغرافية، و هو ما يفسر معاناة الشعب الجزائري عبر كل مراحله التاريخية.

مواقع الشعر الملحون في المقاومة الجزائرية:

من هنا ترتبط كلمة المقاومة أو الجهاد بمقاييس أخلاقية و دينية جد محددة، و هو ما يفسر افتخار الشاعر الشعبي دوما بشعبه بل و حتى بمعاناة شعبه، فهو يراه مظلوما و ليس ظالما، مدافعا عن حقوقه و ليس مغتصبا، فالمعاناة من أجل استرجاع حق مغصوب و أرض مسلوبة، و مقياس الحق وحده الباعث في نفس الشاعر الأمل ليمتزج بشعبه، و يجعل من هذه المعاناة الطينة التي تتشكل من خلالها القصيدة فتصبح هذه الأخيرة قطعة من نفسيته.

من هنا يحتل لفظ المقاومة مكانة بارزة في البيئة الجزائرية، فيدخل في تشكيل هوية الشعب الجزائري، و بالتالي يحدد معالم شخصية الفرد الجزائري، و هذه المعالم التي تبناها الشعر الملحون فأضحى الفرد الجزائري وقتها غير تائه بل سيد مصيره الآخذ بزمام أمره، محددا لهدفه، هذا الأخير الذي استمد روحه من الفتوحات الإسلامية و الغزوات التي خاضها الرسول صلى الله عليه و سلم ضد قوى الكفر و الإلحاد، فلا غرابة إذن حين نجد الابتهالات الدينية تتصدر كل قصائد الشعر الملحون بل تشغل مساحات كبيرة في القصيدة الشعبية و هو ما يعطي مفهوم المقاومة في الشعر الملحون طابعه التحريري و العقائدي فهو يرتبط بالتغيير الذهني و التطهير الروحي عند الفرد الجزائري، و بالتالي يتنافى مع كل محاولات التهميش التي جند لها الغزاة كل ما يملكون من وسائل الدمار

و الخراب، و بالتالي الحصول على فرد جزائري جبان "ضائع القصد حائرا لا يدري كيف يميت ساعاته و أوقاته و يدرج أيامه و أعوامه كأنه حريص على بلوغ أجله لكي يستتر تحت التراب"[2].

إن مفهوم المقاومة يرتبط بمعاني كثيرة منها الصبر و الثبات فهو يحتاج لنفس طويل لانعدام الروح العدوانية لدى المقاوم، لأنه يدافع عن مكتسبات روحية بل عن تراث متوارث، فالباحث عند حديثه عن مفهوم المقاومة يجب أن يحدد الفترة التي احتل فيها هذا المصطلح الرقعة الجغرافية و الفضاء السياسي في الجزائر، و نقصد بذلك الفترة الممتدة ما بين سنتي 1830-1954، لأن ليلة الفاتح نوفمبر 1954 قد أفرزت مفهوم الثورة و ليس مفهوم المقاومة و بالتالي تبرز هنا كلمة المجاهد بدلا من كلمة المقاوم، و قد يختفي لفظ المقاومة أو يتضاءل في الساحة السياسية و كذا الأوساط الشعبية فنجد أنفسنا أمام أدب الثورة لا أدب المقاومة.

إن الجذور الأولى للنص المقاوم تبدأ مع بداية دفاع الشعب الجزائري عن كيانه و قد يكون من اللحظة التي تفاعل فيها مع شعبه فأضحى هذا الأخير ملهم شعره بل العجينة التي يتشكل منها عمله الإبداعي و الفني.

---

[2]- طبائع الاستبداد و مصارع الاستعباد- عبد الرحمن الكواكبي.

إن القصيدة الملحونة التي تأخذ تسمية شعر المقاومة هي تلك القصيدة التي وقفت في وجه كل الاعتداءات التي شهدتها الجزائر إلى غاية جلاء الاستعمار الفرنسي من أرضها.

لقد ظل هذا النوع من الشعر يصور ثبات المقاوم في ميادين الزحف و القتال، و يجسد الكمين الذي كان ينصبه للعدو، و كذا الوسائل التي كان يوظفها في المعارك من سيوف و بنادق و متفجرات، فكان الشاعر يبعث روح الحماسة في نفس المقاوم، فيحثه على الثبات و الاستمرار في مواجهة العدو، بل يواسي جراحه و يعكس آلامه و أحزانه فهو المتنفس الوحيد لكل ما يكتمه الشعب من معاناة و يحس به من آلام.

يحمل قصيدة الشاعر الشعبي ما يسمى بالمداح، فيجوب بها المداشر و القرى و يلتف حوله الناس يستمعون للقصيدة التي تكون معانيها مشفرة، يدركها الكبار و يتسلى بها الصغار، إذ ترى هؤلاء يضحكون بل قد يستهزؤون في حين ترى الكبار يصغون للمداح فيقفون عند كل كلمة و ما تحمله من دلالات، إذ ينقل لهم أخبار المعارك و عدد قتلاها و جرحاها فيفرحهم تارة و يضمد قلبهم الملكوم تارة أخرى.

لقد وجد الشاعر الشعبي في شتى المقاومات التي مر بها شعبه متنفسا له بل العجينة التي يتشكل منها إبداعه الفني، بل ألهمته الروح البطولية و الشجاعة التي عرفها أجداده القدامى في شبه الجزيرة العربية، إذ كان الشاعر الشعبي يرى أن الفرد الجزائري لا يختلف

عن أسلافه بل هو يترسم خطاهم و يسير على منوالهم، و كان يرى نفسه لا يختلف عن حسان بن ثابت في هجاءه للكفار، بل يقف في وجه كل من أراد أن يطمس معالم شخصية شعبه و قيمه النبيلة، و بالتالي استبدالها بخرافات و بدع، فكان دور الشاعر الشعبي هو إخراج هذه القيم إلى حيز الوجود.

و الشاعر الشعبي لا يكتفي بمدح شعبه و التغني ببطولاته بل ينتقي نموذجا يجعل منه البطل الذي تدور حوله الأحداث،ـــ فهو الذي يسير المعارك و يقود المتاتلين و بالتالي يضفي عليه أسمى معاني النبل و الطهارة و أحيانا تكسو هذه القيم مسحة حزينة يغذيها الظلم و التعنت الاستعماري، و هي ليست مسحة حزينة بمعناها السلبي و التي تحمل دلالات اليأس، بل يتحول هذا الحزن إلى شكل حماسي، خصوصا و هو يتحدث عن النموذج في خوضه للمعارك و نصبه للكمائن، فالشاعر يتذوق رفقة بطله نشوة الكمين و هو يدوي و بالتالي يلتقي مع الشاعر السوري سليمان العيسى[1*] في قوله:

ما عساني أقول؟و النار لم تل فح جبيني هناك و الثأر دائر[2*]

لم أذق نشوة الكمين يدوي فإذا السفح للصوص مقابر.

يريد الشاعر بقصيدته أن يدفع النموذج إلى تحقيق المزيد من الانتصارات و مضاعفة المعارك ضد استعمار يختلف عنه دينا و لغة.

[1*] ـ شاعر سوري ولد عام 1921 في قرية النعيرة عرب المالكية.
[2*] ـ عنوان القصيدة من ملحمة الجزائري.

يتحول النص الملحون في كثير من الأحيان إلى نقد للأوضاع المزرية التي يعيشها الشعب الجزائري و معاناته اليومية و بالتالي يدفعه إلى المزيد من المقاومة مع ضرورة التجلد بالصبر، و كثيرا ما يتفطن المستعمر إلى خطورة هذا الموقف فيعمل جاهدا لتكميم أفواه الشعراء خوفا من قصائدهم المسممة للناس، و أيضا للممارسات الجائرة إذ لا يخفى على المستعمر أن هذه القصائد تنقلها الأجيال فتصبح بمثابة سجل تاريخي يجسد أعماله البشعة و سلوكاته المشينة.

لقد تمثلت هذه الأعمال في تحويل المساجد إلى كنائس أو ثكنات عسكرية أمام أعين هذا الجزائري البسيط الذي يرى أن المسجد هو من أقدس المقدسات التي تتجسد فيها العلاقة الروحية بين العبد و خالقه، ذلك فضلا عن الأرض التي اغتصبها الاستعمار من أهلها الشرعيين، و اللغة التي حاول القضاء عليها و هو يدرك أن القضاء على اللغة يعد بداية التحول فهو القضاء على الماضي نحوا و نسيانا و بالتالي تصبح هذه اللغة محفوظة في التاريخ لا صورة محققة في الوجود.

"لا جرم كانت لغة الأمة هي الهدف الأول للمستعمرين، فلن يتحول الشعب أول ما يتحول الأمن لغته. إذ يكون منشأ التحول من أفكاره و عواطفه و آماله، و هو إذا انقطع من نسب لغته انقطع من نسب ماضيه، و رجعت قوميته صورة محفوظة في

التاريخ، لا صورة محققة في وجوده، فليس كاللغة نسب للعاطفة و الفكر، حتى إن أبناء الأب الواحد لو اختلفت ألسنتهم فنشأ منهم ناشئ على لغة، و نشأ الثاني على أخرى و الثالث على لغة ثالثة، لكانوا في العاطفة كأبناء ثلاثة آباء.

و ما ذلت لغة شعب إلا ذل، و لا انحطت إلا كان أمره في ذهاب و إدبار. و من هذا يفرض الأجنبي المستعمر لغته فرضا على الأمة و يركبهم بها، و يشعرهم عظمته فيها و يستلحقهم من ناحيتها، فيحكم عليهم أحكاما ثلاثة في عمل واحد:

أما الأول فحبس لغتهم في لغة سجنا مؤبدا. و أما الثاني، فالحكم على ماضيهم بالقتل محوا و نسيانا. و أما الثالث فتقييد مستقبلهم في الأغلال التي يصنعها فأمرهم من بعدها لأمره تبع"[3]

يتضح من خلال ما سبق أن رد فعل الشاعر تجاه المقاومة كان مبكرا إذ واكبت القصيدة الشعبية المقاومة في جميع مراحلها التاريخية، تنقل الوقائع و الأحداث بواقعية و صدق، فتتسم بالموضوعية تارة و بالخيال الممزوج بالعواطف تارة أخرى، بل حتى في حالة خفوت البنادق و توقف السيوف تظل القصيدة الشعبية صامدة قائمة تدعو إلى وحدة الصف محاولة إفشال كل المحولات الاستعمارية الرامية إلى التفرقة و تشتيت الطاقات.

[3]- وحي القلم- مصطفى صادق الرافعي-ج3- دار الهلال- مجموعة من المقالات الأدبية و النقدية نشرت في المجلات و الصحف ما بين 1937/1934 ثم جمعت في ثلاثة أجزاء- ص98.

و قد يضطر الشاعر في بعض الأحيان إلى ترك الفرد و النموذج للإشادة ببطولة إحدى القبائل و بأعمالها و خصالها الرفيعة، داعيا باقي القبائل الجزائرية إلى ترسم خطاها و الاقتداء بها إذ تبعث هذه الأعمال في نفسية الشاعر نشوة الافتخار و التباهي.

أما الصراعات بين بعض القبائل أحيانا و الاختلافات التي تحدث في أوساطها فقد تدفع الشاعر إلى أن يتمنى الشهادة حتى لا يرى ما انتهت إليه العلاقات بين أفراد القبائل و جماعاتها، إن أمنية الشاعر هي في حقيقة الأمر بمثابة تحذير خفي منه حتى يحرك الأحاسيس و يخرج إلى الوجود الأنافة الخاصة تحت وطأة الخلافات و الصراعات، فهو في الواقع ضرب من الإيهاب بالجماهير لتوحيد صفوفها بل هو نوع من المقاومة النفسية غير المباشرة.

لقد كان الشاعر في جميع قصائده صادق الرؤيا، ينقل كل ما يجري على الساحة بصدق وأمانة بل يصور كل ما يختلج في كيانه فينقل الوضع الاجتماعي و الاقتصادي الذي آل إليه المجتمع الجزائري في سنوات أضحت تلقب بأعوام الطاعون، الذي حصد الكثير من الأرواح وخاصة الجفاف الذي انجرت عنه الأمراض و الأوبئة مما افرز ظاهرة النزوح نحو المدن الكبيرة بحثا عن لقمة العيش .

على الرغم مما أصاب المجتمع الجزائري في تلك الأعوام فقد ظل يقاوم الاحتلال وظل الشاعر لا يتحدث سوى على البارود وما يخلفه من دعر وهلع في نفسية الغاصب المعتدي ،إذ يجتمع الأهالي في بيوتهم يتناقلون الأخبار وما خلفته المعارك من جرحى وقتلى في صفوف الاستعمار .

إن ما يميز القصيدة الشعبية هي حدودية زمكانيتها إذ تنشأ من دون شك لغاية محددة ولهدف معين فهي موجهة لكافة شرائح المجتمع على اختلاف مستوياته الثقافية حتى إذا مرت المناسبة أضحت القصيدة ذكرى إن لم نقل سجلا تاريخيا ومنهلا للمؤرخين يفتقر فقط للدقة ويتسم بالعمومية في اغلب الأحايين.

الحقيقة إن مادة النص الشعبي ومعطياته الأساسية هي في الواقع هموم ومشاغل المجتمع الجزائري إذ تساهم في تشكيل مادتها المرأة والشيخ والطفل وكل أفراد المجتمع الجزائري حيث يتناول هذه المادة شاعر مقتدر فيشكل منها عملا فنيا رائعا، وهي في هذه الحالة شبيهة بالإلياذة الطبيعية .

وهكذا يتركز النص الشعبي حول حادثة معينة أو شكوى من أوجاع مؤلمة أو ببساطة هو تعبير عن هموم وأحزان ، وبالتالي فلا بد من دراسة النص في إطار زمكانيته الحقيقية ، وقد تحتاج هذه الدراسة إلى خلفية تاريخية قد تكون قصة حقيقية بطلها فرد من أفراد

المجتمع أو قبيلة من القبائل أو شعب برمته وهي في هذه الحالة تحتاج إلى قاص محترف يقدمها إلى القارئ في حلة أنيقة.

إن ما يلفت الانتباه في شعر المقاومة الملحون هو تعدد مواضيعه ، إذ تشير القصيدة إلى مواطن مختلفة وظواهر متنوعة فنادرا ما تتسم القصيدة بوحدة الموضوع إذ يتطرق الشاعر إلى جوانب سياسية ليعرض عنها مشيرا إلى جوانب اجتماعية وقد تتداخل هذه الأخيرة مع جوانب ثقافية وهو ما نفرد له في بحثنا هذا فصولا تقتضيها منهجية البحث .

فإذا كانت ظاهرة الطللية في الشعر الجاهلي تكاد تكون قانونا لا يحيد عنه الشاعر و إلا عد شاذا ، فالمتفحص للشعر الملحون يجده لا يكاد يخلو في مطالعه من الابتهالات الدينية إذ تكاد تكون ظاهرة في القصيدة الشعبية لأنه كما أسلفنا هي غذاء المقاومة ومحركها الأساسي .

على الرغم من حدودية النص الشعبي مضمونا إذ يكاد يخلوا من العمق، ولهجته لا تكاد تضبطها قواعد نحوية أو إملائية ،و بالتالي فلا غرابة في ذلك فهي تخاطب شرائح المجتمع باللغة التي يفهمها و يدرك أبعادها ،لذا فهي تتميز بظاهرة الانتشار والتداول وسط كافة شرائح المجتمع مغطية كافة الرقعة الجغرافية ، وبالتالي يصبح للنص الشعبي أهمية بالغة فهو يغنى في المواسم والأعياد ليخرج المكبوت ويروح عن النفس، إذ يتغنى الراعي بالقصيدة

وهو يحدو الإبل و الأغنام مصحوبا بالناي أحيانا فيضفي على القصيدة نغمة حزينة ،أما أصحاب الحرف فيجدون في القصيدة حافزا ينشطهم و يدفعهم إلى العمل و التفاني كما تتغنى الأم بالنص الملحون مواساة لأطفالها فتدفع عنهم اليأس و الخمول.

أما في الأعراس فقد تصحب الأغنية الشعبية آلات موسيقية بسيطة قد تكون جلدية (القلال) أو قصبية (الناي) فيتولى بغنائها شيخا محترفا يرتدي لباسا تقليديا يعكس تقاليد المنطقة و غالبا ما يمزج الشيخ بين الغزل و عناصر المقاومة، بل أحيانا يمزج بين المرأة و النموذج و يرافق هذه الفرقة رجلا يدعى (البراح) يشيد بمناقب و خصال بعض الرجال الذين عرفوا ببطولاتهم أو جودهم و سخائهم في أوساط المجتمع أو تركوا بصماتهم في المقاومة الشعبية.

و للنص الملحون حظا وافرا فيما تسمى بالوعدة حيث تجتمع بطون الأهالي عند ضريح ولي صالح، حيث تقام الأفراح و تنصب الخيام و تلتقي الأسر برجالها و نسائها من شتى أرجاء الوطن لتتعارف فيما بينها لمدة قد تدوم أكثر من أسبوع بأكمله و مهما يكن فإن هذا الأمر يحتاج إلى بحث كامل أو رسالة جامعية.

و مهما يكن فإن هذه الطرق المتبعة في تقديم النص الشعبي و تداوله لها أهمية بالغة في شحذ الهمم و حماسة المقاوم بل قد تصبح ترويحا عن النفس و حفاظا على ذاكرة

الشعوب، و كل ذلك بفضل كلماتها الموحية و دلالتها المعبرة التي لا تقل أهمية من حيث الفاعلية عن البندقية.

إن البندقية و السيف لهما فاعلية مادية بحته، في حين يهيئ النص الشعبي الفرد الجزائري إلى أخذ الحذر و الاستعداد لكل محاولة عدوانية دخيلة لأن الكلمة مواكبة لحركات المجتمع، تتفاعل معه متسمة بطابع الصيرورة و الديمومة.

إن المقاومة لابد أن تتوفر على عناصر أربعة ترتكز عليها كي تفهم في سياقها العام أي لابد أن تتوفر على العنصر البشري و المبدأ أو القضية ثم الأرض المغتصبة و لولا فكرة الأرض المستعمرة لكان الأمر بالنسبة لنا هو الحديث عن حرب أو غير ذلك من المصطلحات التي اعتاد الباحثون إضفاءها على هذا النوع من الشعر.

من هنا لابد للمقاومة من هذه العناصر الأربعة فالتجانس بين هذه العناصر بل التفاعل هو الذي أفرز النص الشعبي المقاوم، فقدم إلى المجتمع بلهجة مفهومة و مهما تعددت مواضيع القصيدة الملحونة فهي تسعى لتحقيق هدف واحد يتمثل في توعية المجتمع و تحذيره من الخطر الذي يحذق به.

إن المتمحص للنص الشعري المقاوم يجد لفظ الاستشهاد يتردد كثيرا و غالبا ما يكون مقترنا بالجنة، فمصدر المقاومة و الشهادة هي العقيدة الإسلامية التي كانت دائما الوقود

المحرك للرجل المقاوم و هو أمر طبيعي ما دامت المقاومة تستلهم عناصر ديمومتها من السير العربية الإسلامية.

"و الواقع أن الشاعر الشعبي حين يتمسك بالإسلام، و يعتز بالماضي، و يفتخر بانتصارات المسلمين، فقد كان دوما يربط ذلك الماضي المشرق، بالحاضر القديم و يتوق إلى رؤية عظمة الإسلام، و عزة المسلمين تتحقق من جديد في هذا الوطن فالعودة إلى الماضي كانت تحمل بذور الدعوة، و بعث النخوة و الكرامة في نفوس المواطنين، لكي يكونوا خير خلف لخير سلف"[4].

"إن الإسلام كان صانع الرجال بل كل العظماء الذين أفرزتهم الدعوة المحمدية دون سواها و بغيرها لم يكن ليعرفوا وسط هذا التاريخ العالمي"[5].

من هنا ظل مصطلح الشهادة يتردد داخل النص الشعري المقاوم فالشهادة بالنسبة للمقاوم ليست الموت بل الحياة بعينها و جائزتها الجنة لا غير، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تكفل الله لمن جاهد في سبيله، لا يخرجه من بيته إلا الجهاد في سبيله، و تصديق كلماته أن يدخله الجنة، أو يرده إلى مسكنه الذي خرج منه، مع ما نال من أجر أو غنيمة"[6].

---

[4]- دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة 1830-1945- د التلي بن الشيخ- الشركة الوطنية للنشر و التوزيع- الجزائر- ص98.
[5]- إسلاميات العقاد- مطبوعات دار الشعب 1968
[6]- الموطأ - الإمام مالك ابن انس- دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ص 271.

لقد كان الفرد الجزائري يحفظ الكثير من الآيات القرآنية التي تحمل معنى الشهادة المبشرة بالجنة، كما كان ينظر إلى الصراع بينه و بين المغتصب ليس على أساس أنه صراع بين مستعمر و مستعمر بل هو في أصله صراع بين الشرك و التوحيد.

من هنا يتضح أن المقاومة التي خاضها الشعب الجزائري عبر مراحل التاريخ و نقلها النص المقاوم الملحون كانت في أصلها من أجل نصرة الإسلام و إبطال الكفر، ناهيك عن استرجاع الأرض المسلوبة، مما يدفع إلى الاعتقاد أن معظم الانتصارات التي حققها الشعب الجزائري عبر تاريخه الطويل كانت بدافع روحي و عقائدي و الآيات القرآنية التي كان يحفظها الإنسان الجزائري وقتئذ كانت بمثابة الوقود الذي رفع البنادق و التي ألحقت بالعدو خسائر نكراء و في عدة مناطق من التراب الجزائري.

من هنا نقف عند الخدمة الجليلة التي قدمها الإسلام لهذه المقاومة، فالقضية لا تخص فرد أو جماعة بل تعني كل مسلم يدخل المسجد و يرتل آيات الاستشهاد و الجنة، و المتمرد عن هذه القاعدة لا يعني خروجه أو عزوفه عن مقاومة الاستعمار بل خروجا عن العقيدة الإسلامية الداعية إلى الاستشهاد في سبيل الله.

من هذا المنطلق نشعر بصدق التجربة الفنية عند الشاعر المقاوم فهو لا ينطلق من فراغ بل من الواقع المعاش و الإيمان الصادق بمعاني النبل و الطهارة التي يخلعها على رجال المقاومة.

لقد تكونت علاقة حميمة بين أفراد الشعب و رجال المقاومة فصار المجتمع يؤمن لرجال المقاومة الطرق و يدلهم على السبيل فيقطع بهم الوهاد و الشعاب بل يهيئ لهم المئونة فيؤثرها على نفسه و لو كانت به خصاصة، كل ذلك في سبيل المبدأ الذي التزم به.

إن هذه العلاقة الوطيدة هي التي حملها النص الشعبي كرسالة يطوف بها المداح في مختلف القرى و المداشر و قد ينظر الاحتلال للمداح كمشعوذ أو معتوه و لكنه في نظر العامة ملهب الهمم و مواسي المظلوم و مضمد الجراح.

إن النص الشعري الملحون وثيقة تاريخية هامة إذا أحسن المؤرخ استغلالها و جردها من المبالغة و التي هي بالنسبة للشاعر بمثابة الأمر الطبيعي، إذ لا يستطيع الشاعر التخلص من ذاتيته و خياله و بالتالي فإذا أحسن المؤرخ استغلال هذه الوثيقة استطاع فعلا نقل أحداث تاريخية تعكس واقع المقاومة في تلك الفترة بل واقع الشعب المقاوم برمته.

لقد نقل الشاعر الشعبي بصدق و أمانة تلك المعاناة التي عرفها رجال المقاومة و هم يجوبون الأكم و الوهاد بحثا عن ميادين النزال يحدوهم الإيمان الصادق، و العقيدة

الراسخة المستمدة من التاريخ الإسلامي الزاخر بالأمجاد و البطولات و الحقيقة أننا نجد الشاعر الشعبي في نقله للمقاومة لا يقف عند الوصف الخارجي فحسب بل غالبا ما يستكنه كوامن العظمة في نماذج هذه المقاومة، بل أحيانا يسبر أغوار المجتمع المساند لرجال المقاومة.

إن النموذج و المجتمع في القصيدة الملحونة يمتزجان بل يتداخلان فهما وجهان لعملة واحدة على حد تعبير الفلاسفة.

نجد الشاعر الشعبي يبحث دوما عن النموذج و قد يكون فردا أو قبيلة، فيضفي عليهما هالة من الإطراء و المدح، حتى يظن الباحث أن النموذج من وحي المخيلة لا من الواقع و كأن الخيال الشعبي قد اختصر المسافة بين الواقع و الخرافة و هو أمر ليس بالغريب فقد لعب الخيال الشعبي في سيرة عنترة بن شداد دورا هاما، حتى أضحت الشخصية أسطورة بل توظف كرمز أسطوري في معظم القصائد الحديثة.

لقد استطاع الشاعر الشعبي أن يمضي رخصة تسمح له بدخول بيوت جميع الشرائح الاجتماعية، التي تردد قصائده في جميع المواسم و المناسبات تاركا بذلك بصمات في الذاكرة الاجتماعية، و من هنا يكون قد قدم الرسالة النبيلة فحقق المبدأ و ربط بين الماضي و الحاضر، حتى أن الباحث ليجد صعوبة و هو يمحص العجينة التي تشكلت منها

القصيدة بين الشاعر كمبدع و المجتمع كملهم، و مهما يكن فالشاعر فردا من أفراد المجتمع يعيش وسطه و يتألم لما أصابه فيحزن لإخفاقه و يفرح لانتصاره فتصبح القصيدة ذاكرة المجتمع و ضميره.

و مهما يكن و إن كنا سنفرد للبعد الإسلامي فصلا بأكمله، فلابد أن نشير إلى العقيدة الإسلامية و ما لعبته من دور فاصل أثناء مقاومة الشعب الجزائري للاحتلال عبر كل المقاومات التي عرفها عبر التاريخ إذ كانت العقيدة بمثابة الوثاق المتين الذي جمع شمل أفراد المجتمع عبر كل الأزمنة و العصور، و من هنا فلا غرابة إن كنا نشير دوما إلى الدين الإسلامي و ما لعبه من دور هام أثناء مقاومة الشعب الجزائري للاحتلال.

إن أبطال المقاومة مهما نعدهم في النصوص الشعرية تبقى ملامحهم واحدة يعكسها الإيمان و الشجاعة و الصبر، و بالتالي لا يصبح البطل فردا فحسب بل نموذجا يطابق مختلف النماذج الأخرى و لا يختلف عنها إلا في درجة الشجاعة و الصبر.

و مما يلفت نظر الباحث أثناء عملية دراسة النص المقاوم أن البطل لا يكون دائما معروفا بل قد يكون رمزا لا غير تتداوله ألسنة العامة في أفراحها و أقراحها، ترى فيه العزة و الأنافة و كل معاني الشجاعة و الإقدام، أما إن عرف النموذج فتصبح حياته المستمرة مفخرة، و شهادته حزن و أسى.

يعتمد الشاعر الشعبي و بصورة أساسية على النموذج، إذ تمتزج المقاومة بالنموذج فالمقاومة لابد لها من الاستمرارية لأن النموذج يخلف الآخر في حركة متواضلة "ومن هنا نلاحظ هذه الاستمرارية الدافقة التي تملأ النص الشعبي الشعري الجزائري في ظروفه الصعبة، و التي تعطينا "المقاومة" في "الهدنة" و "الصمت" و "الثائرة" عند قيام ثورة من الثورات. و معنى هذا أن نوعية "النموذج" الملاحظ في نصوص ما قبل الاستعمار هو ذاته الحاضر الممتد معنا في النصوص التي قيلت أثناء الاحتلال ثم في الثورة التحريرية مع فارق أساسي هو التنوع و التنقل عبر رحلات الأبطال و تعابيرهم السياسية و طلقات بنادقهم المدوية"[7].

إذن فلابد لهذه النماذج من أن تتواصل مهما كانت الظروف الاجتماعية و السياسية للبلاد و الشاعر هو الذي يعطي النموذج صفة الصيرورة و الديمومة.

و ليس من الغريب أن نقحم في هدا البحث نموذجا أخر فنصفه بالسلبية و هو الفرد المنحاز للاستعمار طوعا أو كراهة، طمعا أو خوفا و قد حدد ملامحه الشاعر الشعبي في الكثير من قصائده.

[7]- بعض النماذج الوطنية في الشعر الشعبي الأوراسي خلال الثورة التحريرية- العربي دحو. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر - ص25.

لقد نعت الشاعر الشعبي هدا النموذج بكثير من الأوصاف و النعوت: الجيفة، الكلب، الخائن، الحركي، حيث كان هذا الأخير سببا في استشهاد الكثير من رجال المقاومة الجزائرية.

إن كراهية المجتمع لهذا النموذج مستمدة هي الأخرى من الدين الإسلامي فهو بمثابة الناقة المريضة التي يجب أن تعزل عن باقي القطيع، حتى لا يصاب هذا الأخير بالعدوى.

لا يفوتنا هنا الإشارة إلى نموذج ثالث و هو ذلك الذي يتظاهر بالتعامل مع الاحتلال و هو في الواقع الخادم الأمين لرجال المقاومة، و قد كانت تنظر العامة إلى هذا النموذج نظرة إعجاب و تقدير، وهو إعجاب مشوب بالحذر لأن تردد هذا النموذج على مكاتب المحتل يدخل في نفوسهم الخوف و الهلع.

و مهما يكن فإن الأمر كما نلاحظ يتعلق في جميع الحالات باحتلال غاصب و شعب محتل و بالتالي فلابد من وقفة عند طبيعة المغتصب.

لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نسمي هذا المغتصب نموذجا فهو لا يتوفر على أدنى صفات النموذج بل هو جيش يعرف بسلاحه و سياسته و تنظيم هياكله، فالاحتلال في توازن القوة يجعلنا نستبعد مصطلح النموذج بالنسبة للاحتلال.

لقد كان من بين أهداف الاحتلال امتصاص ثروات و ممتلكات الشعب الجزائري بطريقة فوضوية و مكثفة و كذا نشر الأمية في أوساط المجتمع ببث الشقاق و التفرقة و نشر الشعوذة و الخرافات، بل أراد طعن لغة القرآن الكريم في صميمها، بحجة أنها إحدى ركائز المجتمع و وسيلة من وسائل الدعوة إلى الجهاد.

و مهما يكن فإن شاعر المقاومة كان مدركا لكل خفايا الاحتلال من خبث و مكر و دهاء فأضحى الشاعر كالبركان الذي يقذف الحمم صارخا في وجه الاحتلال، منددا تارة و ناقما تارة أخرى، بل مفتخرا بشعبه الذي أحب وطنه و هو يدفع فواتل الشهداء من أجل انتزاع حقه المغتصب.

إن كل الوسائل التي سخرها الاحتلال من أجل القضاء على المقاومة الجزائرية سواء أكانت مادية أو معنوية، لم تثن من عزيمة الشعب الجزائري و لم تخمد النار المتأججة في كوامن الشاعر و هو لا يفرق في قصائده بين فرنسا و غيرها من الدول الصليبية إذ هو ينطلق من نور العقيدة شأنه في ذلك شأن كل أفراد الشعب الجزائري.

و قد يتحول الهجاء عند الشاعر تارة إلى نقد لاذع و مباشر للاحتلال، فدخول الاحتلال أرض الجزائر يعتبر في نظره وصمة عار و نقطة سوداء في تاريخها فهو ينطلق من عقيدة راسخة، هذه الأخيرة هي بمثابة الوقود المحرك لكل مقاوم تدفعه إلى الشهادة

دون تردد مستبشرا بالجنة، مرددا كلمة الله اكبر و الشاعر المقاوم يدرك أن الإسلام يكرم أهل الكتاب و يصون أعراضهم و مع ذلك يبقى المحتل بالنسبة إليه هو النار المحترقة، و المقاومة هي علامة الإيمان الجارف الذي يتحدى الريح و اللج و يجتاز المخاطر.

يجب الإشارة في سياق هذا التحليل أن الشاعر يعرفنا في قصائده بمعظم القبائل الجزائرية مادحا إياها أحيانا و هاجيا بعضها أحيانا أخرى و ذلك ليس من باب التمييز أو التحيز بل لتحقيق ظاهرة الشمولية و عدم إهمال أي عنصر من عناصر المقاومة لان واقع المجتمع الجزائري و تركيبته تفرض هذا التنويع، فالشاعر يعي أن القبائل بتنوعها و اختلافها تربطها عقيدة واحدة و هدف واحد .

إذا كنا من خلال هذا التحليل قد حددنا النماذج البطولية عند الرجل، فان مكانة المرأة البطولية ، لا تقل من حيث الأهمية عن الرجل ، إذ افرد لها شاعر المقاومة مقاطع كثيرة في قصائده ، فوصفها بأوصاف تتماشى و طبيعتها فهي تجسد الشرف ، و تمثل الكبرياء ، و هو ما نراه في حياتها و صبرها على المحن ، و في طاعتها لولي أمرها إذ تقاسم الرجل الجوع و العطش دون بكاء و عويل، تتحاشى الدخول في أعمال و أسرار زوجها

" إن المرأة أخذت في النصوص وسام الخلود و تربعت على تمثال من الماس و الجواهر و الآلاء و لكن من منظور كيانها و حقيقتها و طبيعتها، و عندنا انها_و إلى اليوم_ بالنسبة للمرأة في الثورة لو تعطي لها الدنيا مقابل أن تخرج كما أرادها هؤلاء متخلية عن طبيعتها لطلبت الخروج من هذه الدنيا التي ستعطي لها _ولا شك_ إلا الشواذ فتلك غربان متوالدة في كل عصر و زمان و ستظل حتى يرث الله الأرض و من عليها"[8] لقد تحملت المرأة الجزائرية خلال المقاومة مسؤوليتها كاملة بكل عزيمة و صبر ، فهي ترعى شؤون بيتها ، و تتحمل أعباء نقل الماء قاطعة مسافة كبيرة، بل تحمل الحطب فوق ظهرها قاطعة به مسافة كبيرة أيضا، و قد ترعى قطعان الغنم أيضا فتعود بها بعد غروب الشمس لتتولى بعد ذلك شؤون زوجها و أولادها، و هنا نتحدث عن المرأة الريفية على وجه الخصوص .

أما علاقة المرأة بالمقاومة فقد شخصها الشاعر المقاوم بجلاء إذ ظلت تناضل إلى جانب الرجل بل كانت تضاهيه أحيانا في بعض الأعمال، التي قد يعجز عن القيام بها لأنها تلفت انتباه رجال الاحتلال .

لقد ادخلها الشاعر أحيانا في دائرة الخوارق و مع ذلك فقد ظل النص الشعبي في إشارته للمرأة لا يخرج عن المكانة التي أعطاها لها الإسلام، فهي مطمئنة بإيمانها الراسخ، هذا

[8]- نفس المرجع السابق ، ص 109.

الإيمان الذي دعاها إلى الصبر و الثبات فهي بطبيعتها رقيقة عاطفية تطيع الرجل لأنها ترى في طاعتها له طاعة لخالقها عز و جل .

لقد كادت أن تأخذ ظاهرة المرأة في القصيدة الملحونة ظاهرة الخلود، إذ كان الشاعر ينظر إليها نظرة التقدير و الاحترام، فهي إلى جانب زوجها و أبيها و أخيها في السراء و الضراء مقتدية في ذلك بالنساء المسلمات، فلا غرابة إن كان الشاعر يفرد لها مقاطع كثيرة في القصيدة الملحونة .

إن المرأة قبل كل شيء هي التي أنجبت النموذج البطل، و بالتالي فهو صورة لها، يحمل ملامحها، تعلم منها الصبر و الثبات و تحمل المشاق، فهي لا تبدي استسلاما للخطوب و الأهوال و ذلك هربا من ضروب المقاومة، بل واجهت الاحتلال بالشتم و النقد و الهجاء، بل غالبا ما طعنت المحتل في ظهره، إذ هي ترى فيه الكفر و الإلحاد و الاغتصاب، و كم هن اللواتي سقطن في ميادين الشرف.

من هنا نلاحظ أن الشاعر و مهما بالغ في وصف بطولات المرأة الجزائرية أثناء المقاومة الجزائرية، فلا يستطيع أن ينصفها و يعطيها حقها.لقد لعبت المرأة الجزائرية أثناء المقاومة دورا هاما يحمل معاني النبل و الشرف، فأثبتت وجودها و فرضت نفسها، رغم الصعاب و المحن، بل تأقلمت مع كل الظروف التي واجهها المجتمع الجزائري .

لقد واجهت الخطوب بالصمت الرهيب، و من هنا فتعتبر النموذج الحقيقي لنضال المرأة في العالم .

يتضح من كل ذلك أن الشاعر المقاوم استطاع أن ينقل جراح و ماسي الشعب الجزائري، إذ لم يكن الشاعر الشعبي يعيش بمعزل عن مجتمعه، بل كان يدرك جميع الوسائل التي سخرها الاحتلال للقضاء على مقاومة الشعب الجزائري، فقدم لنا لوحات تنم عن بسالة ناطقة و شجاعة فائقة .

لقد كان الشاعر الشعبي حين يغمره الحزن نتيجة الظروف الاجتماعية المزرية التي يعيشها مجتمعه، يلجأ إلى روح الزهد و التصوف، فيميل في معظم أبياته الشعرية إلى التضرع و الابتهال . فإذا استيقظ الضمير لجأ الشاعر إلى التحذير و نشر الوعي و الحث على تغير أساليب المقاومة مع ضرورة طرد شبح الخوف.

لقد استطاع الشاعر الشعبي أن ينقل المقاومة في جميع أشكالها المختلفة، و ما كانت تعانيه هذه المقاومة من مآسي، نتيجة التفوق الكبير الذي كان يمتلكه العدو عدة و عتادا، فقد شعر الشاعر الشعبي بضرورة توحيد الصف ضد العدو المشترك، و ضرورة محاربة الخونة الذين انضموا إلى صفوف الاحتلال .

يرى الشاعر الشعبي أن هؤلاء الذين خاضوا المقاومة هم في منزلة الصحابة بل راحوا يضاهون صحابة بدر لذا أضفى عليهم الشاعر هالة من المدح و الإطراء، فالأهالي في المجتمع الجزائري يعتزون بهؤلاء المقاومين و يرددون بطولاتهم في كل مكان، إنهم خاضوا معارك دامية حين كانت السيوف و البنادق تحصد الأرواح، و هم يصرون على المعارك بثبات و عزم يحدوهم الإيمان الراسخ و العزيمة التي لا تلين، فيسجلون صفحات مشرقة من تاريخ الجزائر." إن موت الأحرار و هم يسجلون صفحات الخلود بالدماء و الجراح، فيتزلون بالعدو الهزيمة ، و يكبدونه الخسائر،هي الغاية التي يسعى إليها الإنسان المجاهد أيام المحن و الشدائد "[1].

لقد بكى الشاعر الشعبي هؤلاء الشهداء بكاء من طعن في عزته و شرفه حيث تتضاعف آلامه و حسرته فهو لا يبكي فردا بل مجتمعا بأكمله.

من هنا يكون من الطبيعي أن تمتلك العامة شعرا يعبر عن حاجاتها و يجسد أحاسيسها و مشاعرها، و على الرغم من إغفال الدارسين لهذا النوع من الشعر كونه لا يرقى إلى مستوى الشعر الرسمي، فقد فرض هذا النوع من الشعر نفسه على الساحة الأدبية، بل أبى إلا أن يواكب الشعر الرسمي في ميادين النضال و التضحية يستمد مضامينه من المصدر الحقيقي، واقع المجتمع الجزائري.

[1]- دور الشعر الشعبي في الثورة، 1830- 1945م، د. التلي بن الشيخ ش و ن ت، ص 182

فإذا أراد الباحث أن يقف عند العواطف الشعبية الصادقة و العادات الراسخة فما عليه إلا أن يلتفت إلى هذا النوع من الشعر الشعبي يستمد منه تطلعات الشعب الجزائري و أهدافه السياسية و المستقبلية.

قد تأتي القصيدة الملحونة في شكل قصة واقعية رائعة تطبعها روح الأناقة و العزة، فينتقل الشاعر من خلالها الأحداث، و يرصد الوقائع و قد يضفي عليها طابع البطولة و التضحية فتغدو تعبيرا عن مشاعر الشعب و تشكيلا لنفسية الإنسان الجزائري .هدفه الوحيد هو استخلاص العبرة و العضة فيحول الجبان إلى شجاع، و الغافل إلى واع و النائم إلى يقض.

لا تلعب القصيدة الشعبية هذا الدور فحسب بل تحافظ على الثقافة الجزائرية، بكل ما تحمله من عادات و تقاليد و أنماط معيشية بل تحمل ذاكرة بأكملها فتوصلها إلى جميع الشرائح الاجتماعية و من هنا تكون القصيدة الملحونة متنقلة بين أرجاء الوطن.

لقد أدرك الشاعر الشعبي بوعي و تبصر المصاب الذي أحل بالبلاد، و هذا الخطب لا يقاس بنجاح معركة أو فشلها و إنما بمأساة شعب برمته، شعب تحمل شتى أنواع الظلم و مرارة المحن، فالكثير من أفراد الشعب طردوا من ديارهم ظلما و عدوانا، و استخدمت

ضدهم كل وسائل الإبادة التي تهدف إلى نوع الصلة التي تربط المجتمع بوطنه، و قتل كل أشكال التطلع إلى الحرية و الاستقلال.

من هنا كان الشاعر الشعبي يتابع مآسي و جراح شعبه، يشاركه حياة الذل و الهوان إذ يحز في نفسه أن يرى أفراد مجتمعه يتجرعون كؤوس الذل و الهوان.

يرى الشاعر الشعبي أن أسباب هذه الوضعية التي آلت إليها الجزائر هي من سنن الله في خلقه، "فالأزمة تلد الهمة و لا يتسع الأمر إلا إذا ضاق، لقد أوشك فجر الجزائر أن ينبثق، لقد ادلهمت فيه الخطوب و ليس بعد الضيق إلا الفرج سنة الله في خلقه"[10].

لقد ظل الشاعر الشعبي مشدودا إلا ماضيه، يستلهم منه الدروس، و يستنتج من نكباته المواعظ و العبر، و كم تمنى الشاعر الشعبي الشهادة في ميادين القتال بدلا من أن يمتد به العمر فيحيا حياة القهر و التعاسة، فهو يرى في نفسه الفارس العربي الذي يمتطي الجواد و يحمل السلاح و ينزل إلى ساحة النزال و القتال . لقد كان بإمكان الشاعر أن يتخلى عن مبادئه و سلوكه المقاوم، و يرتمي في أحضان الاحتلال كما فعل الكثير من أفراد أمته و قد يتحصل نتيجة لذلك عن المال و الجاه .

[10]- مقالة لجمال الدين الأفغاني (بتصرف)

إنه يرى في أولئك الذين ارتموا في أحضان الاحتلال خنازير و قردة، باعوا شرف أمتهم بأبخس الأثمان، فارتقوا إلى مصاف القياد و لكن ما هي إلا مرحلة عابرة ليعود هؤلاء إلى حقيقتهم.

لقد كان مبدأ الشاعر واضحا فيما يخص وحدة الصف، إذ دعا إلى وحدة القبائل العربية و نبذ الشقاق و الخلاف لأن ذلك يؤدي إلى تبديد الصف و تشتيت القوة و بالتالي تمين الأمة فيركبها المستعمر.

تميز الشاعر بوعي وطني كبير، بل تميز بالحس القومي أيضا، إذ كان مدركا لخطورة الوضع الذي تمر به الجزائر بصفة عامة و الأمة العربية بصفة خاصة. لقد كانت صرخات الشاعر مدوية تنبذ التفرقة و ترفض الظلم و العدوان بروح صادقة و بريئة، عبر من خلالها عن روح المقاومة بكل صدق و أمانة، فنقل الجراح و صور الآلام فكانت هذه المعاناة مادة قصيدته و الجراح اللبنة التي تشكل بناء القصيدة.

لقد حاولنا من خلال هذا الوصف أن نبين بعض مواقع الشعر الملحون أثناء المقاومة الشعبية الجزائرية، دون أن نقدم شواهد أو نماذج شعرية، لأن هذه الأخيرة يأتي دورها حين نفرد لكل جانب من الجوانب السياسية و الاجتماعية و الثقافية و الدينية فصلا خاصا، أطلقنا عليه اسم البعد، حاولنا من خلاله استكناه دور القصيدة الملحونة في

المجتمع الجزائري إبان الاحتلال الأجنبي، يقول الدكتور غسان كنفاني :«حين يوشك الصدام أن يحدث فإن الحنجرة الشعبية تتقلب فورا إلى المتاريس و إلى الالتحام المباشر»[11].

«قام الشعر الشعبي بدوره في الدفاع عن حمى البلد، و إبراز البطولات الجزائرية الرافضة لهيمنة المحتل، و هذا منذ الاحتلال سنة 1830 إلى الاستقلال سنة 1962 . فالأدب الجزائري يمكن، من البداية أن نؤكد حضور النص الثوري الشعبي في كل المراحل التي مرت بها مقاومة الشعب الجزائري، و قد عرفت ثوراته المختلفة هذه المقاومة، و هذه الثورات التي نجدها موزعة على أرجاء الوطن »[12].

[11]- أدب المقاومة في فلسطين المحتلة، غسان كنفاني. -سلسلة غسان كنفاني 14ص 50

[12]- بعض النماذج الوطنية في الشعر الأوراسي خلال الثورة التحريرية. العربي دحو ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

البعد السياسي في شعر المقاومة الملحون

كان دخول الاحتلال الأجنبي مدينة الجزائر و ما حولها في صيف حار من عام 1830، بعد مقاومة شديدة من طرف الأهالي و السكان، و قد سخر الاحتلال لذلك كل ما يملك من عدة و عتاد، حيث اعتبر بعد ذلك المنطقة خاضعة لسيطرته، فتولت جيوشه حكم المنطقة بالحديد و النار، و لكي يتمكن الاحتلال من فرض سيطرته الشاملة، حاول ترقية بعض الشخصيات المعروفة في المنطقة منتهجا سياسة التفرقة، إلا أن هؤلاء رفضوا التعاون مع الاحتلال إذ رأوا فيه تجسيدا للديانة المسيحية، و أن الحرب صليبية بكل ما تحمله الكلمة من دلالة.

أما الأقلية القليلة التي قبلت التعاون مع الاحتلال فقد عجزت عن إقناع الأهالي الذين رأوا فيهم كل ما تحمله صفات الذل و الخيانة.

لقد وجد الاحتلال الفرنسي صعوبة كبيرة في السيطرة على الوضع، إذ لقي أمامه مقاومة شعبية عارمة بالرغم من اختلال ميزان القوة بين الاحتلال و المحتل، و هو ما أشار إليه الشاعر عبد القادر الوهراني بقوله :

الكلب غير رقب للمرسى شافها*** شاف المدافع لوجهه منصوبين

من جهة البحر قاع الناس تخافها***برج الفنار منه بكي مـــدعورين

برم سفاينه و تقدم قدامهـــــا***في سيدي فرج نزل ذا اللعـــــين

سواحل البحر تحكي لك عطوها***الأوطان و السهل ثم شعاب آخرين

لم المحال في يوم السبت و جابها***و السبت ما توغاشي من المسلمين

المومنين فزعت هي و صغرها***الأبراج و الطابن بالمومنين

هبطت الصبايحية تنشد في باسها***الإسلام كان شي من المجاهدين[1]

ينقل الشاعر عملية دخول الاحتلال ميناء سيدي فرج بصدق و عفوية واصفا إياه بكلمة الكلب و هو يدرك ما يحمله هذا اللفظ من دناءة و انحطاط، خصوصا عند الفرد الجزائري فقمة المعايرة عند هذا الأخير هي أن يصف الآخر بهذه النعوت.

و مع ذلك وجد هذا الحيوان كل الدافع منصوبة في وجهه، و الوجه عند الجزائري رمز الحياء و البهاء فحين يمس الوجه تدنس الشخصية فيصبح لا مكانة لها و لا منزلة، و يشير الشاعر إلى أن عملية الدخول كانت من جهة البحر و هو أمر معروف في كتب التاريخ، و لمن المتأمل للأدبيات الشعرية يلاحظ العفوية و النقل الأمين للأحداث رغم السطحية التي يبديها الشاعر حيث كان بمثابة آلة التصوير التي تنقل الأحداث لا غير، إذ يمكن القول بأن الشاعر اكتفى بالقشرر دون أن يتعداها للجذور لاكتشاف البذور.

و لقد أشار الشاعر إلى اختلال ميزان القوة بين المعتدي و أصحاب الأرض و لو بطريقة غير مباشرة برم سفاينه و تقدم قدامها فكلمة برم تدل على القوة و الظلم ، و قد وضع

---

[1]- المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون. إعداد و تقديم: جلول يلس لمقران التغفلوي. ش.و.ن.ت. الجزائر. ص 36.

الشاعر نفسه مكان المؤرخ حين أشار إلى اليوم الذي تمت فيه عملية الإنزال، و قد تكون عملية اختيار هذا اليوم بمثابة خدعة من طرف الاحتلال، و هكذا قد تكون القصائد الملحونة من بين الوثائق التي قد يستند إليها المؤرخ في تدوين الأحداث و الوقائع.

إن ظاهرة الفزع التي أصابت الأهالي من جراء هذا الاعتداء لدليل قاطع على رفض الجزائري الاستسلام و الرضوخ للأمر الواقع فالغريب يختلف عنهم دينا و لغة و ثقافة.

من هنا يكون الشاعر قد استطاع أن يقدم أصدق صورة لعملية دخول الاحتلال الجزائر، و نحن نلمس من خلال الأبيات تلك المسحة الحزينة التي تطبع القصيدة فهو يعني اختلال التوازن بين الأهالي المقاومين و قوات الاحتلال، بل يدرك أن المقاومة مهما طال عمرها فلن تكون إلا بدافع روحي و هو عامل إن لم تؤازره العدة و العتاد فلن يصمد طويلا.

"وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ"[2].

لقد أدرك الاحتلال الفرنسي عدم قدرته على احتلال الرقعة الجغرافية الجزائرية بكاملها نظرا لاتساع هذه الرقعة و امتدادها مع صعوبة تضاريسها و مسالكها، لذا عمد إلى سياسة الاحتلال المحدود مع تشجيع هجرة المهاجرين الأوربيين إلى الجزائر، و مصادرة الأراضي الزراعية و الأملاك العقارية و بالتالي تسليمها إلى هؤلاء المهاجرين، و لتمرير هذه الخطة أصدرت السلطات الاستعمارية أمرها بالاستيلاء على الأملاك و الأوقاف

---

[2] سورة آل عمران الآية 169

و بالتالي أتاحت الفرصة لهؤلاء المهاجرين للتوجه صوب الجزائر، و قد وفرت لهم كل التسهيلات للإقامة الطويلة في الجزائر، و كم تفاجئ هؤلاء و هم يرون الأراضي الخصبة المطلة على البحر الأبيض المتوسط، و هم الذين كانوا يضنون أنها بلاد حارة شبيهة بإفريقيا الجنوبية و بالتالي كان ينتابهم التردد في بداية الأمر، و بمجرد قدومهم إلى الجزائر تحول سهل متيجة إلى مكان حقيقي لهؤلاء المهاجرين.

إن هؤلاء المهاجرين كانوا من جنسيات مختلفة، فرنسا و اسبانيا و إيطاليا و جزر البليار، و كان معظمهم من الصعاليك و ذوي السوابق العدلية فسيطروا على ممتلكات الأهالي بطريقة فوضوية لا نظير لها، فأرغموا سكانها على الهجرة و النزوح نحو المدن الكبيرة و ما بقي منهم في الأرياف ظل يصارع من أجل البقاء، بل أكثر من ذلك وزعت الأراضي الخصبة و الحيوانات مجانا على المستوطنين لتشجيعهم على البقاء و الاستثمار و الاستغلال،بل حتى عساكر الاحتلال تحولوا في بداية الأمر إلى فلاحين و مزارعين على أساس أنهم أقدر على الدفاع عن أنفسهم، فأنشأت المزارع الجماعية التي استوطنها جنود الاحتلال و تحول الأهالي إلى مجرد عاملين مقابل أجور زهيدة لا تكفي لسد رمقهم و رمق عائلتهم، يقول نفس الشاعر عبد القادر الوهراني

سعى بلا طراد هذا الكلب حداها***و ادى أموالها أخوان الشياطين

كيف جاز عل سطاوالي و خدوها***ابطبول و العساكر و السنجاقين

زادوا اخدوا قهوة الأبيار و ديارها***و تشبطوا البرزريعة في الحين

قدام الصنوبر نزل امحلها***و أخدوا برج سيدي مولاي حسين

في الليل راحت الروم ضربت طنبورها***و المومنين تبكي يا مسلمين

البعض راح و البعض صبر لطرادها***شدود في الجناين نحو اليومين

المومنين هامت خلات وطانها***و افترقوا على البلدان مساكين

الصبر يا أمة محمد لا يامها***هذا ما قضى رب العالمين

من درى على الجزائر و على تحصانها***و على وجاقها نزلت فيه العين[3]

إن أول ما يلفت الانتباه هو الجو النفسي الحزين الذي يطبع القصيدة و المشحون بكل معاني الغضب، فهناك إشارة من طرف الشاعر إلى الأموال المسلوبة من طرف المحتل الذي ادعى أنه جاء لنشر الحضارة و المدنية بين سكان الجزائر، و قد وصف الشاعر المحتلين بإخوان الشياطين، فالشيطان منبوذ من طرف المسلمين فهو مصدر كل شر، بل على المسلم محاربته في كل لحظة إذ لا ينتظر منه خيرا.

و قد راح الشاعر يشير إلى كل مكان مر به الاحتلال و استحوذ عليه، ذاكرا الأماكن بأسمائها الواحدة تلو الأخرى، فمن اسطوالي إلى مقهى الابيار إلى سيدي مولاي،

[3]- المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون : إعداد و تقديم جلول يلس أمقران الحفناوي. ش و ن ت، الجزائر. ص37.

و الشاعر لم يقم بعملية جرد و إحصاء لكل الأماكن التي داهمها الاحتلال، بل ركز على الأماكن التي تحتل مكانة كبيرة في نفوس الأهالي، هؤلاء الذين استسلم معظمهم للبكاء و الأسى راضيا بقضاء الله و قدرته، في حين هاجر الكثير من هؤلاء الأهالي مقر إقامتهم لا يدري الواحد منهم أي وجهة يأخذها.

لقد عبر الشاعر عن هذه الظاهرة بكلمة "هامت " التي تدل على الحيرة و ضياع القصد، و من هنا لا يجد الشاعر سوى دعوة هؤلاء الأهالي إلى التجلد بالصبر، و قد تعجب الشاعر لما آلت إليه الأوضاع في الجزائر وكأن العدى غاظهم أن يروها تنعم في ظل الحرية و السلام.

لقد خلع الاحتلال الفرنسي على الأهالي جملة من الألقاب تطبيقا لسياسة التفرقة، كما عملت الإدارة الفرنسية جاهدة على تفتيت و تشتيت الأهالي غير الخاضعة لسلطانها، في حين أصبح المستوطنون يكنون كل الحقد و الكراهية للزعماء المتعاونين مع الاحتلال ظنا منهم أن هؤلاء ينافسونهم في التقرب من السلطات التي كانوا ينظرون إليها نظرة نفعية بحته .

لقد حول الاحتلال الجزائر إلى قطعة مفتوحة للاستيطان تحت حكم قهري جائر، و هو يدرك أن الجزائري يرفض بطبعه الرضوخ للذل و الهوان مهما حاولت قوات الاحتلال إقناع بعض الجزائريين بضرورة التعاون معها.

لقد شعر أهالي الجزائر بالأخطار المحدقة بهم و ما ينتظرهم من معاناة و إذلال من جراء هجرة هؤلاء الأجانب الحاقدين، و ما يحملونه من مكر و دهاء و من هنا لم يجد الأهالي بدا من الارتماء في أحضان المقاومة، و قد استغل الاحتلال هذه المواقف لزيادة تصدير الأراضي بالجملة، و التكثيف من المحاكمات الجائرة، و هكذا حقق المستوطنون أهدافهم فسيطروا على البلاد و العباد، حيث شرعت السلطات الاستعمارية في تطبيق سياسة الإدماج مجندة لذلك جميع القوانين السياسية منها و التشريعية و الإدارية و القضائية.

لقد نشطت حركة الاستيطان الفرنسي بشكل واسع و مكثف و أضحت سلطات الاحتلال تغزو الأرياف الريفية الداخلية، و تكثر من عملية توطين العنصر الأجنبي منتزعة أراضي الأهالي بالقوة و تحويلها إلى قوى استيطانية بقوانين جائرة تحمل في طياتها كل معاني المكر و الخداع.

كان العنصر الأجنبي يرى في الأراضي المنتزعة من الأهالي مشروعا مربحا و ليس وسيلة للعيش، فهو مصدر الحصول على الثروات و ليس الاستقرار و خدمة الأرض، خاصة و قد تحول هؤلاء الأهالي إلى مجرد أجراء أو خماسين موسميين، يقول نفس الشاعر :

حسراه على رجال البهجة***أعطاوا ماينة و انغلبوا

الفرانسيس ولد العلجة***من كل جيه جانا يدبروا

كي البحر فايض على الموجه***و الواد كي يجي بشعابه

و الوقت كيف قرب وجا***معلوم كل شيء بسبابه

عم على وطن متيجة***و جا على الثنية عقبوا

هبط على طريق الموجه***و الناس من الجناين هربوا

و المومنين ضجت ضجة***حتى الصغار منها شابوا

نسوان بايتين هواجه***هذا البلا ربي جابه

يا سامع الدعاء في الدجا***الإسلام بالدعاء يطلبوا[4].

هي إذن إشارة من طرف الشاعر الشعبي إلى مختلف الأجناس البشرية التي غزت الجزائر فهي كالبحر متلاطم الأمواج أو كالواد الذي يجرف كل ما يجده في منحاه و بالتالي فهم لا يحملون معهم سوى الحقد و الضغينة لهؤلاء الأهالي الأبرياء .

---

[4]- نفس المرجع السابق. ص 37.

و هنا أيضا إشارة واضحة إلى ترك الأهالي لأراضيهم الخصبة و الفرار منها مشردين، بحثا عن مكان آمن، و لن يكون هذا المكان إلا في المرتفعات الجرداء و المسالك الوعرة حيث قساوة العيش و برودة الشتاء .

لا يجد الشاعر في النهاية سوى التضرع إلى الله متوسلا إليه بأن يرفع هذا الذي حل بالجزائر و شعبها.

" لقد أضحت الجزائر قطعة من فرنسا بحيث ألغيت كل الحواجز الجمركية، و انصب اهتمام الاحتلال على إنشاء الطرقات و الجسور و السكك الحديدية تمهيدا لتحويل الثروات إلى فرنسا الأم قصد تطوير صناعتها و بالتالي تم تطبيق سياسة الإدماج الشامل."[5]

لقد رأى الأهالي في هذه السياسة كل معاني الاحتقار و الكراهية و الازدراء و من هنا فقد كان لسياسة الإدماج هذه نتائج وخيمة على شرائح المجتمع الجزائري، بحيث تمزقت الأسر الجزائرية و خاصة العائلات الكبرى التي كانت تمثل القيادات للمجتمع الجزائري، بل حتى الذين كانوا يزاولون بعض الحرف الصغيرة إذ زوحموا في أنشطتهم المختلفة من طرف المستوطنين الذي اتصف معظمهم بالشراهة و القسوة في جميع المجالات، بينما تخلى بقية الفلاحين عن أراضيهم أو بيعها بأثمان زهيدة نتيجة إرهاقهم بالضرائب.

[5]- سياسة التسلط الإستعماري و الحركة الوطنية 1830- 1954 . دحي بو عزيز -ص30. (شاعر مجهول)

لقد انتهجت السلطات الاستعمارية سياسة الزجر ضد الأهالي حيث أصبحت تطبق سلسلة من العقوبات دون محاكم و بقرارات لا صلة لها بالقانون، بدعوى حفظ الأمن إذ خولت السلطات الإدارية حق سجن الأشخاص و مصادرة أملاكهم دون أحكام قضائية كما منع الأهالي من التنقل بين الأقاليم دون رخص، يصف لنا حالته و قد حكم عليه بالسجن ظلما و عدوانا.

و علاش يا الحكام المحبوس عندكم ينظام***الابد خدام و يموت بلاديه

ما شافش الباطل و انا شبعت من الذل***دارولي سلاسل من حديد في رجلي

ربي عالم خلق كثير باصي فالظلم***و احكام تحكم و الشهود الزور هما اللي بي

راني معدم قلبي بالأمواس اتقسم***نبني و انهدم و الوعد سايق لي

نبات سهران نبكي و الدمع ويدان***و القلب فتان يغدا و يرجع لي

الظلم اكثر و الناس كامل تهوم***و العري و الشر و الخدمة علينا عصية

المحبوس قليل في يد الحكام ذليل***و القلب ذليل مازال طامع في الدنيا[6]

استطاع الشاعر تقديم لوحة مأساوية عن سياسة الظلم و الجور التي انتهجها الاحتلال متسائلا عن شتى أنواع الذل و الإهانة التي يتعرض لها السجين، إذ أشربه الدمع حتى تمل، و ما الشاعر إلا نموذجا لعينات كثيرة من شرائح المجتمع التي ذهبت ضحية الظلم

[6]- المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون : إعداد و تقديم جلول يلس لمقران الحفناوي. ش و ن ت. الجزائر.

و العدوان، فما من أحد يعلم عدد هؤلاء الذين افترشوا الأرض نتيجة أحكام جائرة و شهود مزورة تشهد على حدة المكر و الدهاء التي يتصف بها المحتل.

لقد مزج الشاعر بين عواطف الحزن و الجراح العميقة فعبر عن ذلك بكلمة "العدم" التي تدل على العجز و الاستسلام، أما قلب الشاعر فيتقطع بالسكاكين ليترف دما، إذ أضحى السجين حائرا قد أثقلت الهموم كاهله، فهو يضمر الأسى و يسهر الليالي الطوال يبني و يهدم، فقد تفشى الظلم حتى أصبح ظاهرة عامة مست جميع شرائح المجتمع، أما فيما يخص الظروف الاجتماعية القاسية و إن كان الشاعر قد أشار إليها في عجز البيت الأخير فسوف نعود إليها بالتحليل أثناء تناولنا للبعد الاجتماعي في شعر المقاومة الملحون.

لقد عمل الاحتلال الأجنبي جاهدا على طمس معالم الهوية الجزائرية من حملته الإعتدائية عام 1830 و ذلك باستخدام شتى الطرق و الوسائل، إذ أضحت القرارات القضائية الجائرة تصدرها فئة من اليهود التي عرفت المكر و الخداع، فكان الجزائري يزج به في السجن نتيجة مخالفات مزعومة، إذ لا يحق له مثلا أن يبيع ماشيته في السوق بدون رخصة، و لا يجوز له الخوض في السياسة أو الحديث عن فرنسا بما لا يليق بها، كما لا يحق إطلاقا إيواء ضيف قادم من بعيد دون رخصة، بل قد يعاقب الجزائري إذا تخلف في

تسجيل المولود أو المتوفى، و بقدر ما تكون هذه القوانين ذرائع و عراقيل مقصودة فهي تنم عن خوف الاحتلال من التفاف الجزائري حول مقاومته.

لقد أوكلت فرنسا عملية الإبادة الجماعية للأهالي إلى مرتزقة معظمهم من المغامرين أو لاجئين أو مجرمين هاربين من العدالة، فقلوبهم أشد قساوة من الحجارة لا تعرف الرحمة أو الشفقة، إذ قام هؤلاء بمذابح فضيحة و رهيبة ضد القبائل المنعزلة خصوصا تلك التي تقوم بدعم رجال المقاومة حتى تكون هذه الأفعال الشنيعة دروسا للقبائل الأخرى التي تريد أن تحدو حدوا المقاومة و هنا نضطر إلى نقل مقتطف من شهادة أحد المرتزقة الألمان حيث يقول :

" جاءنا أمر الاستعداد العاجل، ووضعت القوات الفرنسية في حالة طوارئ، بسبب التحركات المريبة لبعض القبائل العربية، و الحق أننا كنا ننوي أن استغلال الموسم الربيعي الجميل الذي كنا ننتظره بفارغ الصبر لشن حملة ضد هؤلاء المتوحشين، فالقبيلة التي وقع عليها الاختيار و هي قبيلة العوفية، و قد اتهمت هذه الأخيرة بأنها تسببت عدة مرات في فرار العساكر المرتزقة من فرقهم."[7]

بعد هذه الأعمال الشنيعة التي ارتكبها الاحتلال ضد الأهالي العزل، راح المرتزق يسرد الأحداث التي تلت تلك المجازر :

---

[7]- أبحاث و دراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة، د. عمار هلال -سلسلة المعرفة- ص 71

" تهب في الخيام المهجورة، و امتدت الأيادي المخربة إلى ابسط الأشياء ، و استولت العساكر الفرنسية على كل ما وجدته من ذهب و فضة و ألبسة، و أسلحة و غيرها من الأشياء الثمينة، بل حتى الأشياء التي لا قيمة لها، لم تسلم من نهبهم، زيادة على ذلك، حاولت القوات الاستعمارية أن تجر وراءها أكبر عدد ممكن من الماشية في استعجال كبير لأنها شاهدت مجموعة من البدو تتجه نحوها"[8]

يتضح جليا من خلال هذه الشهادة كيف كانت قوات الاحتلال تتربص بالقبائل المنعزلة، فتكيد لهم المكائد، و تباغتها و هي في حالة أمن و سلام، فتقتل كل ما تجده أمامها دون شفقة و لا رحمة، بل أكثر من ذلك تنهب كل ما تجده أمامها من متاع و ماشية لتترك هؤلاء الأهالي في العراء، يصارعون قساوة الحياة، و برودة الطبيعة، بحجة أنهم يتعاونون مع رجال المقاومة، و الحقيقة أن هذه الشهادة لا تعبر تعبيرا دقيقا و كاملا عن فضاعة و بشاعة تلك المجازر التي كان يرتكبها جنود الاحتلال في حق الأبرياء العزل.

يقول أحد الشعراء المخمورين:

أموالي الداوها النصارة ظلم جهار***طمعت في ذا البلاد تملك

لا تبيع بدين لا يكتبوك شفار***تضحا تجري وراء موال

[8]- نفس المرجع السابق، نفس الصفحة

ستة املايير اداوها الفجار***سلوع من كل ما هوى لك

عندك لا تأمن العدو و تدبره جار***لا تكريلوش في ترابك

النصر بخيل منافق غدار***مه ياخي رد بالك[1].

يحدثنا الشاعر عن عملية السلب و النهب التي تعرض لها الكثير من الأهالي ظلما و عدوانا، و هو يدرك خطورة الموقف، فالبلاد كلها معرضة لعملية السلب و النهب، كما يطلب عدم التعامل بالدين مع المحتل مهما كانت صفته فرنسيا أو كان يهوديا لأنه يتميز بالبخل و النفاق، إذ يظهر لك الأدب و المعاملة الحسنة و يضمر لك الحقد و الكراهية، فهو منافق غدار.

و قد أدرك الشاعر بفطرته مدى الخطورة التي يتعرض لها الوطن من طرف هذا الدخيل الذي يختلف عن الجزائري في كل شيء.

يتضح من كل ما سبق أن سلطات الاحتلال قد اعتمدت في إخضاعها للأهالي على كل وسائل الاضطهاد و العنف، هدفها الوحيد بعد الاستيطان هو القضاء على الشخصية الوطنية، واجدة في عملية التخريب لذة لا نظير لها.

لقد استهدفت سلطات الاحتلال في بداية الأمر كل المعالم التاريخية و الدينية للشعب الجزائري، و هي تدرك أن العقيدة هي العجينة الأساسية التي تتشكل منها كل أنواع

[1]- المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون- جلول يلس- اسعران الخطاوي- ص42.

المقاومة، لقد كرست السلطات الاستعمارية كل الجهود في إعطاء المدن الكبرى طابع الجمال لتأخذ صورة المدن الفرنسية و بالتالي تختفي شيئا فشيئا معالم الحضارة و الثقافة العربية الإسلامية، حيث تحولت بعض المساجد إلى مسارح و أخرى إلى ثكنات عسكرية و إسطبل للحيوانات و هو مساس واضح للعاطفة الدينية للأهالي، حيث كانت سياسة الاحتلال تستهدف بالدرجة الأولى الجوانب الدينية المقدسة و كل ما يمس كرامة الفرد الجزائري، إذ كان يدفع بالأهالي إلى نبش قبور أحفادهم دون أن يتجرأ أحد منهم على الاحتجاج و إلا كان مصيره الإعدام أمام مرأى و مسمع جميع الناس، يقول الشاعر عبد القادر الوهراني:

حسراه على المفاته و على قضاها***علمات البلاد مصابح الدين

حسراه على الجوامع و على خطابئها***و منابر الرخام اللي مرفوعين

حراه على الصوامع و على آذانها***و على دروسها ثم الحزابين

حسراه على المساجد علقت بيبانها***ضحاوا اليوم يا سبد منسيين

حسراه وين تحافتها وين ديارها***وين البيوت و غرف المحضيين

ولات غير وطية و مشات رسامها***ماذا يغير المنكر اللعين[10]

[10]. المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون، إعداد و تقديم جلول يلس أمقران المفتاوي ش و ن ت: 35.

يقدم الشاعر عبد القادر الوهراني صورة واضحة عن الحالة المزرية التي آلت إليها المعالم التاريخية و الإسلامية، التي عبث بها الاحتلال الفرنسي فتحولت إلى وطية على حد تعبير الشاعر فاختفت كل الرموز التي تمت بصلة إلى الحضارات العربية الإسلامية.

أمام هذه الوضعية المزرية التي ذاقت مرارتها مختلف شرائح المجتمع، لم يجد الكثير من الأهالي مسلكا سوى الهجرة خارج الوطن بحثا عن الاستقرار و الطمأنينة إذ جرد هؤلاء من أبسط حقوقهم المدنية و السياسية.

قبل الوقوف عند هذه الظاهرة بالتحليل، لابد من الإشارة إلى عواملها و أسبابها.

لقد كان الفرد الجزائري قبل الاحتلال لا يغادر وطنه إلا لأداء فريضة الحج أو لطلب العلم أو ممارسة التجارة، و لكن بعد الاحتلال الأجنبي اتخذت الهجرة منحى آخر فأضحى المشرق العربي قبلة الكثير من المهاجرين، فالظلم و الاضطهاد أصبح حقيقة يومية ماثلة أمام أعين الناس، ناهيك عن الجوع و الفقر و الذل و الهوان حيث أثقلت السلطات الاستعمارية كاهل الأهالي بالضرائب، إضافة إلى الفظائع و الجرائم البشعة التي كانت الكثير من القرى و المداشر مسرحا لها.

إن هذه العوامل و غيرها دفعت بالكثير من الأهالي إلى مغادرة ديارهم و أهليهم بحثا عن مكان آمن، فمنهم من هاجر إلى البلدان المجاورة كتونس و المغرب و ليبيا نظرا لقربها من

الوطن، و مع ذلك فقد غير الكثير منهم الوجهة نحو بلدان أخرى، نظرا للحالة الاقتصادية المتدهورة لهذه البلدان.

و لعل من أبرز عوامل هذه الهجرة تهديد الأهالي في معتقداتهم الروحية عن طريق البعثات التبشيرية التي كانت تهدد الأهالي بصورة مباشرة.

لقد استطاعت هذه البعثات استغلال سذاجة بعض الناس ممن كانوا يعيشون أوضاعا اجتماعية مزرية، و مع ذلك لقيت هذه البعثات التبشيرية معارضة عنيفة من طرف معظم الأهالي و خاصة شيوخ الطرق الصوفية الذين عبروا عن تمسكهم بدينهم و عدم استبداله مهما كلفهم ذلك من ثمن.

أما البعض الآخر فرأى أن الحل يكمن في ترك ديارهم نهائيا و الرحيل صوب المشرق العربي حيث يمكنهم الاحتفاظ بدينهم و مقومات ثقافتهم الإسلامية.

لقد تأكد الكثير من الأهالي من عدم القدرة في هزم الاحتلال بعدته و عتاده خصوصا في هذه المرحلة فاستقر رأيهم على ترك البلاد التي داهمها الفرنسيون و دنسوا مقدساتها و انتهكوا حرمات أهلها، فعاثوا في الأرض فسادا، و بالتالي هاجروا وطنهم و استقروا ببلاد المشرق العربي و مع ذلك ظل حنينهم إلى وطنهم يشدهم كثيرا خاصة و قد تركوا

أبناء وطنهم يرسفون تحت وطأة كل أشكال الظلم و العبودية، يقول الشاعر عدة بن الشريف التحلايتي[11]:

من فرقة وطني راني حزين مهلك***متخوض ماي ما فاد فيه جحيد

راودته بالمولى منين هما ناسك***أمنين أوطانك و أمنين عرشك عيد

قال اوطاني من البهجة اسمع نحكي لك***هذاك اقليمي و العرش نجح فريد[12].

يعبر صاحب النص بواقعية عن حرقة فراق الوطن، و الجو النفسي الحزين الذي يخيم عليه، ففراق الوطن لا يقاس بثمن، و من هنا حاول إخفاء الجراح و الآلام فكانت أقوى من صبره و تجلده، و بالتالي فهو يرسم صورة قاتمة لما كان يقاسيه المهاجر بعيدا عن وطنه الأم، إذ يحدد بدقة موطنه العزيز (البهجة) و هو الإقليم الذي ولد فيه و ترعرع بين شعابه و سهوله.

الواقع أن حياة الظلم و البطش التي عاشها الشعب الجزائري و كذلك الظروف المعيشية الضنكة هي التي دفعت بالكثير من المواطنين إلى الهجرة، فالحياة قد بلغت أبشع صور الخداع و النفاق، بل وصلت إلى حالة من الرعب و الفزع. بهذه الصورة المؤثرة، و المعبرة عن شعور وطني فياض، يكشف الشاعر عن شدة تعلقه بوطنه و حنينه إليه.

---

[11]- هو العلامة سيدي عدة الشريف التحلايتي من ناحية سيق .الكنز المكنون، قاضي محمد - ص83/82.

12- نفس المرجع

و الجزائري في غربته لا يبكي الأهل و القارب فحسب، بل يبكي أولائك الرجال الذين يقابلون في كل يوم الشدائد و المحن، فكم هم يتجرعون مرارة الظلم و الطغيان، و هو يسترجع ذكريات الحقيقة التي حلت بوطنه و التضحيات الجسام التي يقدمها شعبه من أجل حريته و كرامته.

إن العزلة التي كان يعيشها الجزائري في ديار المهجر لا تقف حاجزا بينه و بين مشاركة أبناء وطنه بجوارحه و أحاسيسه، بل هو يعيش الأمرين مرارة الوحدة و مرارة ما يعانيه شعبه من مآسي و جراح على يد غاصب مستغل.

لقد كان أهالي الجزائر حين يشتد بهم الغبن و تكثر عليهم الخطوب يهرعون إلى شيخ من مشايخ الزوايا يطلبون منهم النصيحة فمنهم من يشير بالهجرة و منهم من يشير بغير ذلك فينصحهم بالصبر و الثبات على المكاره رادا ذلك لقضاء الله و قدره، و من المشائخ من ينصح الأهالي بمغادرة الوطن بحثا عن مكان آمن، فقد هرع في أواخر سنة 1847 سكان وادي سبدو إلى الشيخ المهدي مقدم الطريقة الرحمانية طالبين منه النصح و سبل التخلص من مكائد الاستعمار الذي سوف يغزو مساكنهم و يفعل بهم ما فعل بالكثير من الأهالي، فطلب منهم مغادرة هذه الأرض المضطهدة و الهجرة إلى أماكن آمنة حفاظا على دينهم و عقيدتهم.

و لم يكتف الشيخ بإسدال النصائح بل غادر هو نفسه الجزائر صوب سوريا حيث استقر بها رفقة العشرات من العائلات الجزائرية، إذ ما لبثت هذه العائلات أن تستقر بسوريا حتى امتزج عندها الجانب الروحي بالإحساس السياسي، إذ التفتوا حول الإحداث التي تجري بوطنهم فذكرتهم الغربة بما فعله بهم الاحتلال الذي تسبب في مآسيهم و في حرمانهم من وطنهم و من ذويهم و أملاكهم.

إن هذا الإحساس جعل هؤلاء المهاجرين يشكلون تجمعات معادية للسياسة الاستعمارية و بالتالي لم يقطع هؤلاء الصلة بينهم و بين ذويهم بل شجعوهم على الالتحاق بهم خاصة و أن الظروف الاجتماعية و الاقتصادية كانت جد مزرية، إذ ما عسى أن يفعل خماس أو فلاح و هو يجد أبناءه يموتون جوعا، فلم يجد أمام هذه التعاسة و هذا اليأس سوى شد الرحيل نحو بلاد آمنة تكفل له سبل العيش الكريم.

و لم ينس الشاعر الشعبي معاناة الهجرة، سواء عاشها أو سمع عنها و كأنه يريد تأكيد ارتباط المهاجر المتين بوطنه فهو "يرفض أية محاولة للفصل أو التجزئة و يحاول أن ينظر باستمرار نظرته إلى الوطن الواحد يشترك في الهموم و المسؤولية كما يشترك في المصير و التبعية"[13].

[13]- الأدب الشعبي و الوحدة العربية، المجلة العربية للثقافة- العدد 28- مارس 1995- ص27.

يقول الشاعر في الوضع الذي يكون قد دفع بالكثير من الأهالي إلى الهجرة:

طلقوا البلاد فسدت حتى عفناها***و بقات لا حكم فيها لا ديوان

بعد الهنا و بعد الزهو تلمسان

هما أسباب كل امشقة***و الخلق صابرة لبلادهم

طلقوا البلاد هذا الطلقة***سأبت وهمها يركبهم

و إذا تكسرت واش ابقى***غرقوا أولادهم و نساهم

ذا القوم ما معاهم شفقة***ما يرفقوا ابمن و لاهم

الايام ساعدتهمو الوقت احماها***و تناصروا على الإثم و العدوان

خربوا البلاد و المخزن زاد اعمها***الاسواق خالية و الباطل رنان[14].

يعكس الشاعر في الأبيات السالفة الوضع القائم الذي آلت إليه البلاد، فالتجارة بارت بضائعها، و المال اغتصب عنوة من أصحابه،فالناس أمام حكام جائرين لا يعرفون الرحمة أو الشفقة، و بالتالي يستعرض الشاعر تعاسة المجتمع الذي أصبح يتجرع يوميا كؤوس الظلم و العدوان، و هي صور واضحة لكل أنواع البطش و الجور التي أضحى المجتمع يعاني منها.

[14]- دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة 1830-1945م- د. اللي بن الشيخ - ص538.

لقد كان الكثير من الأهالي يمارسون التجارة و بالتالي يملكون رؤوس أموال خافوا من ضياعها أو نهبها من طرف المحتلين، الأمر الذي يكون قد جعلهم يفكرون في الهجرة إلى بعض الأوطان العربية المجاورة لممارسة تجارتهم حيث الاستقرار و الأمن، وذلك لم يمنعهم كما أسلفنا إلى التفكير في وطنهم و شعبهم و ما يعانيه من مآسي و أحزان.

لا يمكن الحديث عن ظاهرة الهجرة، و مغادرة الجزائريين لوطنهم سواء من شدة الخوف و الهلع أو من ضياع مصدر الثروة دون الالتفات إلى الدور الذي لعبه الأمير عبد القادر في منفاه، بعد المقاومة الشرسة التي خاضها ضد الاحتلال الأجنبي، حيث لم تكن هناك ضرورة لتوجيه النداء للجزائريين كي يلتحقوا به، بل مجرد وجود شخصية تاريخية كالأمير عبد القادر، يعد كافيا لجلب الكثير من الأهالي إلى دمشق، فبعد خمس سنوات من استقراره في هذه المدينة أي في حدود عام 1861، التحق به عدد هائل من الجزائريين، إذ كانت تونس تشكل الجسر الرابط بين الجزائر و دمشق.

و غالبا ما كان الجزائريون يتخذون تونس كملجئ في وقت الشدة أو عندما تفرض عليهم سلطات الاحتلال حراسة مشددة، ثم سرعان ما يستأنفون رحلتهم نحو العاصمة السورية دمشق.

و قد كان الكثير من المهاجرين لم يسجلوا أنفسهم بالقنصلية الفرنسية هناك، لأن تسجيلهم يعد في حد ذاته اعترافا بالاحتلال الأجنبي، إذ لا يعقل أن ينتمي الفرد الجزائري بأي شكل من الأشكال إلى جلاديه.

و مهما يكن فإن استقرار الأمير عبد القادر بدمشق، كان له التأثير البالغ في هجرة أعداد هائلة من الجزائريين نحوها، ناهيك عن مساعدة الأمير لكثير من الأهالي، ماديا أو معنويا، أو التوسط إليهم لدى السلطات الفرنسية لحل بعض المشاكل المادية و القانونية أو الإدارية قصد استقرارهم و الحد من معاناتهم، خاصة و أن الرجل قاد مقاومة كبيرة ضد الاحتلال الأجنبي، الأمر الذي يجعل هؤلاء المهاجرين، لا ينسون خصال الرجل النادرة و شيمه الرفيعة، يقول الشاعر ابن عبد الله:

قصة بن محي الدين يا الكتاب***أتأمل فيها يا فطين خمم

ولد القطينة هاشمي شريف الانساب***علم و حكمة و الجاد و التعايم

حين كبر محي الدين شيخ الاعراب***اعطاه السر و طابه امرسم

نصروه اعرابها و باعوه الاعراب***قضيا و مفاتا شيوخها و عالم

ناصر للدين أحياه يقهر الكافرين***توكل على الله ربنا النواب[15].

[15]- نفس المرجع السابق- ص187.

يدعو الشاعر ابن عبد الله إلى التأمل في شخصية الأمير عبد القادر إذ لا يدرك خصال الرجل إلا من تميز بالذكاء و الفطنة، فهو ينحدر من نسب شريف و قد أعطاه الله العلم و الحكمة و الجاه، و هي صفات قلما تتوفر في رجل واحد، و لما تقدم به السن زاده ذلك حكما و علما، الأمر الذي جعل الأهالي يبايعونه دون تردد، فهم يرون فيه الرجل المقاوم القادر على رفع الظلم و الحيف.

إن المقاومة التي قادها الأمير عبد القادر بشجاعة و إقدام و التي لقن من خلالها الاحتلال دروسا لن ينساها أبدا، كل ذلك جعل من شخصيته صورة راسخة في ذاكرة الأهالي.

الأمر الذي جعلهم يلتفون حوله في بلاد المهجر، و هم ينظرون إليه نظرة الرجل الذي سيدافع عن حقوقهم، و يرفع عنهم الغبن، و هو الغبن الذي فروا منه آملين في الاستقرار و الأمن.

إن الأحداث التي تقع للأفراد و حتى للجماعات سرعان ما تندرج في طي النسيان إذا لم تكن أهدافها نبيلة، و غايتها سامية، فالمقاومات التي خاضتها الأمة الجزائرية هي بمثابة الأرضية الصلبة التي وقفت عليها الثورة المباركة.

إن العوامل التي أسهمت في تغذية المقاومة عبر الحقب التاريخية في الجزائر هي عملية إصرار الشعب الجزائري على التغيير و التطلع إلى ما هو أفضل، و قد عبر الكثير من شعراء الملحون عن هذه الرغبة في التغيير فهذا الشاعر ابن السويكت يقول:

ما نرضاوش بمحبت اليد***ما ننسى عش شعبان حش التالي

ما نرضى عيش تمرميد***تنقطع و لا يبقاش فيها تالي[16]

يشير الشاعر الشعبي إلى رفض المجتمع الجزائري لكل أشكال الذل و الهوان و الإصرار، على التغيير و التطلع إلى مجتمع أفضل تسوده العدالة و الحرية.

من هنا يكون عامل التطلع إلى التغيير هو الدافع إلى تفجير المقاومات، و هو تغيير ليس من السهل أن يحدث لأن نسبة كبيرة من الجزائريين لم تكن لتؤمن بهذا التغيير خاصة و أن الوسائل محدودة، و بالتالي فلا بد من العامل النفسي الذي يلعب دورا أساسيا في تعبئة الأهالي و تحضيرهم للالتفات حول تلك المقاومات، و هو ما يسمى عند علماء التاريخ بالوعي الذاتي.

هذه العوامل التي تساهم في تغذية المقاومات، فقد يحدث أن يعاني مجتمعا من المجتمعات الظلم و الفاقة و الجور و لا تكون هذه العناصر مجتمعة في إحداث المقاومة ثم إن المقاومات التي عرفتها الجزائر لم تكن لتتوفر على عنصر الشعبية بمفهومه الواسع إذ لم

[16]- المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون- إعداد و تقديم: جلول يلس-امقران الحفناوي- الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر - ص97.

يكن الشعب الجزائري على صلة بالمقاومة، عدا بعض الأهالي الريفية التي كانت على صلة بالمقاومة.

تقود المقاومة في الغالب شخصية بارزة تعرف بالشجاعة إلى جانب الورع و التقوى و هو ما يطلق عليه اسم النموذج، هذا الأخير الذي تغنى به الشاعر الشعبي في معظم قصائده:

تابعين طريق النبي و مصدقين بابوزيان[17]

إن شاء الله في الدنيا نسعدوا و في الجنة يكون مضمان

يا الإسلام خسارة عنكم اتبعوا في اولاد جوان

كل اخر يقول نغنم و الغنيمة سهم القومان

كانشى من مات الداه يررعوا كفنه كتان

لا حكم للطالب الرضى يخدع الدنيا بالامان

يقول الجهاد حرام علينا يكذب بوريان

سال الطلبة الي بكتوبهم علماء و اهل القرآن

[17]- نفس المرجع السابق- ص56

يربط الشاعر بين العامل الروحي و دوافع المقاومة، فالشيخ بوزيان الذي قاد المقاومة كان تقيا ورعا فالالتفات حوله هو في نظر الشاعر توطيد الصلة بينه و بين الدين الإسلامي فالشهادة في ساحة القتال جزاؤها الجنة.

من هنا تكون المعطيات الأساسية التي صاغ منها الشاعر القصيدة مستقاة من العقيدة الإسلامية، فالمجتمع الجزائري لا يمكنه بأي حال من الأحوال أن يلفت حول شخصية مهما كانت شجاعته و بسالته إلا إذا كانت هذه الخصال ممتزجة بعوامل الورع و التقوى.

إن الذي يقود المقاومة يكون الغالب وليا صالحا يعرف في الأوساط الاجتماعية بالتقوى و الورع، و بالتالي فالوقوف بجانبه و الالتفاف حوله يحرك العوامل النفسية الإيجابية و ليس السلبية. إن هذه العوامل النفسية الإيجابية هي التي تحرك المقاومة و تغذيها و تعطيها الاستمرارية، لأن الصراع في حد ذاته بين قوى الخير و الشر هو في حد ذاته بين عامل الشرك و عامل التوحيد.

و قد لا يقتصر النموذج على شخصية واحدة كما هو الشأن بالنسبة للولي الصالح بوزيان بل قد يقود المقاومة شخصيتين أو جماعة تتضافر جهودها من أجل قيادة المقاومة و بالتالي تكون فاعلية المقاومة أكبر و أوسع و التفاف الأهالي حولها أعظم و التضحيات

أكبر و أعظم، بل قد تكتسي المقاومة أشكالا مختلفة حسب الأولويات و المراحل الظرفية، يقول الشاعر:

قال عزيز الحداد***يا الكرام الأجواد

من الظلم و من الفساد***شعبنا ننقذوه

فرسان غزار شداد***في وجوه العناد

نحفروا له الألحاد***نخيلوا دار بوه

في الجبال و الأوهاد***أبطال غزارة أطوال

تنادي من البعاد***عهدنا نجددوه

نقوم نعمل ثورة و نكسروا الجاحد

المقراني سلاح***عول على الكفاح

قام و دار البراح***يا أهلي الموت خير[18].

تشير الأبيات الشعرية بوضوح إلى العدد الكبير من الأهالي الذين التفوا حول المقاومة التي قادها كل من ابن الحداد و المقراني و هو أمر طبيعي نظرا لسمعة هاتين الشخصيتين و بطولتهما و كلهم على يقين، من أن الرجلين سوف ينقذونهم من الظلم و الفساد الذي استشرى في أوساط الأهالي.

[18]- المقاومة الجزائرية- جلول يلس ... ص70

و هناك إشارة إلى الدور الفعال الذي لعبه الفرس أثناء المقاومات التي قادها الشعب الجزائري ضد الغطرسة الاستعمارية:

فرسان غزار شداد***في وجوه لعناد

لقد ولد أبناء الجزائر مفطورين على حب الفروسية و ركوب الخيل و الطرب لصهيلها، و هو ما يعكس فعلا امتداد الفرد الجزائري إلى الإنسان العربي القديم الذي عاش طوال حياته فارسا، إذ عرف الإنسان العربي الاعتناء بجسمه حتى اكتمل و بنفسه حتى قويت و أهلته لكي يصبح من أكثر الناس مقاومة للخطوب و الشدائد "و قد ألفت العرب أكثر من كتاب في الخيل و الفروسية و كل معاني الفتوه العربية و عناصرها من شجاعة و كرم و مروءة و تفيد المصادر الأدبية و التاريخية أن كتب الخيل كانت من أول ما ألفت في العربية"[19].

لقد اعتز الجزائري بالخيل و عرف منزلتها و عدها بمثابة أولاده، بل كان الأهالي في الأرياف يهنئون بعضهم بعضا، إذا ولدت لهم فرس محتفلين بمقدم المهر المولود لأنه دليل عظمة مكانتها في قلوبهم، فكانت الأسرة تجتمع حول الفرس حين تضع وليدها و تستقبله بكل عبارات الصياح و التهليل و كل الإمارات الدالة على الفرح لأنه يمثل هبة من الله و بركة منه، ثم يأخذه منه أحد أفراد الأسرة بين ذراعية و يسير به مدة من

[19]- الفتوه عند العرب: عمر الدسوقي- دار النهضة للطبع و النشر- الفجالة- القاهرة- الطبعة الرابعة- 1966 – ص43.

الوقت في جو احتفالي. لقد كان الفرس يكتسي طابع الجمال و المتعة في السلم، و طابع السرعة و القوة و الذكاء في ميادين القتال.

و إلى جانب الفرس فالشاعر يشير إلى شجاعة و بسالة الفرسان فهم شداد يقفون في بعناد في وجه الظلم و الطغيان لا يهابون قوة العدو و عناده.

إن المقراني و الحداد قاما بمقاومة من أجل تحقيق عالم أفضل و من أجل الانتقال إلى حياة تسودها العدالة و الحرية و المساواة. فالاستعمار الأجنبي وضع الأهالي أمام الأمر الواقع من خلال المآسي التي شعر بها هؤلاء، ثم إن الأهالي ليس كلهم على درجة من الوعي و لهذا فلابد من نموذج أو نموذجان يقودان المقاومة و حتى هؤلاء الزعماء لا يمكن أن نتصورهم من درجة كبيرة من الوعي السياسي و التنظيمي الذي شهدته الأرضية التي سبقت ثورة 1954.

إن المقاومة مهما كانت أشكالها و أنواعها فهي لا تتميز بالشمولية بل تحدث في منطقة معينة و لا تكاد تنتهي حتى تندلع مقاومة أخرى في مكان آخر، و لكن كانت كلها تتسم بشيء هام و هو الحفاظ على التواصل و الاستمرارية، إذ لا تكاد تخبو نار المقاومة حتى تندلع أخرى و كأنها حلقات متواصلة إذ كانت العملية عبارة عن فعل و رد فعل.

لم يكن لهذه المقومات صدى خارجي بل داخلي فقط نظرا لعزلتها كما أسلفنا، و لهذا كان من السهل على الاحتلال تطويقها و عزلها عن الشعب، و هذا لا يعني أن المقاومات لم تكن لتحقق انتصارات بل كانت تلحق بالعدو خسائر فادحة بل كانت قوات الاحتلال تجد صعوبة كبيرة في القضاء على المقاومة، خصوصا و أنها كانت تعتمد على عنصر مفاجأة، و هو عامل قد تكون ثورة نوفمبر الجزائرية قد استفادت منه و هو ما عرف عندها بالك بالكمين، بل كم كان المقاوم يشعر بنشوة الانتصار و هو يرى عساكر الاستعمار أشلاء مترامية و هي الصورة التي نقلها الشاعر بقوله:

لهبت في كل أقطار***في كل خيمة و دار

من البرج البودينار***عرب صحراء وتل

المقراني غوار***بحال شلة غزار

لعساكرهم دمار***في الكد أشحال

من تقرت البشار***لدوار بنت جبار

يجاهد في الكفار***بجيش قاوي فحال[20].

من خلال ما سبق يتضح عزم الشعب الجزائري منذ البداية على مقاومة الهمجية الاستعمارية، و هو ما يشهد به كل مراقب رافق الحملة الفرنسية و بالتالي يجدر بنا

[20] - المقاومة الجزائرية-جلول يلس- ص72.

الإشارة إلى شهادة أحد القادة الفرنسيين و هو كلوزول[21] الذي يصف معركة سطاوالي بمايلي :

"قامت القوات الجزائرية يوم 15 حزيران 1830 بهجوم شامل على امتداد الجبهة و كان لابد من القتال للدفاع عن كل شبر من الأرض، و خوض صراع خطوة فخطوة. لقد كانت الأرض مقطعة بالخنادق المتتالية، و كان لابد من صدهم عند كل خندق، لقد أخفى العرب مدافعهم خلف السياج و بين الأنقاض، و الجدران المتهدمة، و الغياض الكثيفة. و أقاموا كمائنهم هنا بزمر صغيرة يتراوح عدد أفرادها بين ستة أو ثمانية من القناصة-مهرة الرماة- فكانوا يعيقون تقدم قواتنا بكفاءة. و لم يكن أمرا نادرا أن تجد النساء و حتى الأطفال عند بطاريات المدفعية و هم يعملون على تلغيم الأسلحة التي كان الرجال يستخدمونها للرمي بدقة عالية و بحذر كبير، و بذلك كانت تتضاعف قدرتهم القتالية"[22].

إن هذه الشهادة التي أدلى بها القائد الفرنسي هي أكبر دليل على أن مقاومة الشعب الجزائري كانت منذ البداية الأولى للاحتلال، كما تشير الشهادة إلى ضراوة المعركة التي اشترك فيها النساء إلى جانب الرجال بل حتى الأطفال الذين كانوا يمدون يد العون

---

[21]- كلوزول: Bertrand clausel ماريشال فرنسي من مواليد ميروبواكس Mercpoix (1772-1882)

[22] - La prise d'Alger 1830 Paris 1929 Edition. Page 411

للمقاومين، و هو اعتراف يدل على مدى شجاعة الشعب الجزائري و بسالته في مقاومة الاحتلال، فهو يرفض أن تداس كرامته و تدنس أرضه و هو ما عكسه الشاعر الشعبي بقوله:

انطلقت المحارق ظلت في اتخاذها***و تفروقا مكاحلهم في اليدين

النونية تسيب و قراطس في يدها***و الدوبلي يسيب مسلمين

ماذا أبطال ماتت و اخلات ديارها***راحوا تزوجوا مع حورات العين[23].

تبرز المقطوعة الشعبية بجلاء مدى ضراوة المعارك التي دارت بين الشعب الجزائري المقاوم و قوات الاحتلال، كما تشير إلى عدد الشهداء الذين سقطوا في هذه المعركة دفاعا عن وطنهم، بل تشير أيضا إلى عدد القتلى في صفوف الاحتلال و قد لمح الشاعر إلى ذلك بكثير من الاحتقار بكلمة (الفرايس) و هو معنى يحمل الكثير من دلالات الوضاعة و الإشمئزاز و غالبا ما يطلقونه الأهالي على الحيوان الميت و الملقى في الطبيعة من غير دفن.

لقد قاوم الجزائريون الاحتلال بشجاعة نادرة و عناد فائق إذ لم تكن المقاومة سوى رد فعل للأعمال البربرية و الوحشية للغزاة وصفها مؤرخ فرنسي بقوله:

---

[23]- المقاومة الجزائرية- جلول يلس- ص36.

لقد أظهرت الطائفة اليهودية انحيازا واضحا للفرنسيين و باذلهم هؤلاء كل العطف و الدعم بل كانوا لا يقومون بشيء إلا .باستشارتهم. إننا لا نبالغ إذا قلنا أن كراهية الأهالي لليهود كانت تفوق كراهيتهم للفرنسيين فقد كانوا مجرد فئة تستخدم لتنفيذ مخطط استعماري واسع.

فهذا حكم فرنسا من جد للجد***يدو للقرطة و ينفوا من البلدان

و إذا تعرف شتى يهودي بوس اليد***و قردف أوبايع براسك عريان

واسر الدنيا بالآخرة للحق اجحد***و دير شهود الزور عمد على البهتان

هذا حكم جديد جانا متعمد***بالعسكر و القوم طوع العربان

ما خلى سيرة و لا عرف مسقد***نصروه الباعضين بدالة الأديان[26].

يشير الشاعر إلى الدور الذي لعبه اليهود في مناصرتهم للاحتلال إذ كانوا مصدر الخيانة و المكر و الدهاء، حتى أن الفرد الجزائري إذا أراد أن يتقي شر اليهودي لا بد أن ينحني له، و يقبل يده بل يقف أمامه في حالة استعداد بدون قبعة، إذ أصبح اليهودي و كأنه القائد الذي يحسب له ألف حساب.

و يبدي الشاعر غاية في الدهشة أمام هذه النماذج السلوكية حيث عبر عنها بالحكم الجديد الذي لم يعرفه الجزائري من قبل، فهو لم يتعود على الذل و الهوان إذ أصبح

[26]- نفس المرجع السابق، ص 101

الحكم للجنود الذين أصبح همهم الوحيد هو إذلال الجزائريين، و إخضاعهم لسلطانهم و كأنهم في حاجة إلى سلوك شاذ يخالف العرف و هو ما عبر عنه الشاعر بقوله"بالعساكر و القوم طوع العربان".

لا يمكن الحديث عن البعد التاريخي و السياسي لشعر المقاومة الملحون دون الإشارة إلى المقاومة التي قادها الأمير عبد القادر، و ما نظم فيها من قصائد شعرية رسمية كانت أو ملحونة.

لقد استطاع الأمير عبد القادر أن يصنع لنفسه مكانة مرموقة في تاريخ الجزائر، استطاع ذلك بفضل طهارته و نبله و أعماله الجليلة، فقد اعترف له الأعداء قبل الأصدقاء، إذ شهدو له ببطولاته في ميادين القتال و عبقريته السياسية في تسيير شؤون الإدارة لما تسلم مقاليد الحكم.

لقد قارع السلاح عهدا طويلا إذ ألحق بجيوش الاحتلال هزائم نكراء مما جعلهم يضطرون للجلوس على مائدة المفاوضات و عقد الهدنة معه.

لقد كان الأمير عبد القادر بن زاوية، استطاع تأسيس مدرسة حربية متميزة في فنون الطعن و القتال.

لقد أهديت للأمير عبد القادر نياشين و أوسمة كثيرة من طرف عدد كبير من الدول الأوروبية نتيجة صنيعه النبيل المنبعث من روح الشريعة الإسلامية السمحاء، و ذلك حين أنقذ حياة المئات من المسيحيين في مذبحة قام بها الغوغاء في دمشق فأنقذهم بروح إنسانية عالية.

لقد تميز الأمير عبد القادر بعبقرية فذة، متعددة الجوانب فقد كان شاعرا و متصوفا و هو لم يبرزه الأوروبيون في أبحاثهم بل اكتفوا بالجوانب العسكرية و السياسية في حياة الأمير.

لقد كان مقر الأمير عبد القادر يقبع في قرية الضفة اليسرى لوادي الحمام غربي مدينة معسكر و القرية (قطنة وادي الحمام) عبارة عن عدد صغير من المنازل تشتمل على زاوية كانت مقصد العلماء و الشخصيات المعروفة في المنطقة.

لقد كانت أسرة الأمير عبد القادر تعيش على الزراعة و مما تدره عليها الأرض من عوائد و هبات كما عرفت بالكرم و السخاء إذ عرفت بحسن الضيافة و تقديم المساعدات لعابري السبيل.

و لد الأمير عبد القادر بن محي الدين في أوائل 1808 و قد أظهر منذ صغره نباهة فائقة، فحفظ في سن مبكرة القرآن الكريم كما تعلم مبادئ اللغة العربية و الدين، و قد تدرب على ركوب الخيل حيث وجد في نفسه ميلا خاصا له.

و لما بلغ الرابعة عشر من عمره أرسله والده إلى مدينة وهران لإتمام دراسته تحت إشراف الشيخ أحمد بن خوجة.

تمكن الأمير عبد القادر في أواخر 1836 الاتجاه رفقة ابيه إلى البقاء المقدسة لأداء فريضة الحج و قد مر المسافران بتونس ثم بطرابلس فالإسكندرية ثم القاهرة حيث تمكن الشاب من الاطلاع على المنجزات التي حققها محمد علي و من القاهرة توجه الأمير عبد القادر صوب مكة المكرمة حيث استغرقت الرحلة أربعين يوما.

لقد ازدادت سمحة والد الأمير عبد القادر بعد هذه الرحلة خاصة بما عرف به من إصلاح بين الأهالي و فصله في الخصومات التي كانت تقع بين الناس، لذلك عزم العديد من العلماء و الأشراف على مبايعة أمير إذ تتوفر فيه كل شروط الإمارة و المعطيات الأساسية لقيادة الكفاح المسلح، حيث وقع اختيارهم على محي الدين لما اشتهر به من فضل.

لقد أضحى منذ ذلك اليوم يشن الهجومات المتتالية على القوات الاستعمارية و يلحق بها خسائر كبيرة، بل شارك الشاب عبد القادر في بعض هذه المعارك و أبلي فيها بلاء حسنا.

كان الهدف من هذه العمليات هو إثبات إرادة الشعب و تدريب الأهالي على حمل السلاح ضد الاحتلال، و كذا قطع الطريق أمام بعض الذين سولت لهم أنفسهم المتاجرة مع الفرنسيين.

أمام هذه النجاحات الباهرة قرر أشراف الأهالي و علمائها إلزام الشيخ محي الدين بالإمارة أو تسليمها إلى ولده عبد القادر.

في 31 نوفمبر1832 عقد الأهالي اجتماعا في سهول أغريس بشرق الجزائر حيث فاتحوا الشيخ في الموضوع، فأمعن الوالد في التفكير و رأى أن ذلك من الواجبات المقدسة، فأوكل ذلك إلى ابنه عبد القادر فتمت المبايعة و بالتالي استبشر الأهالي خيرا لما رأوه في الأمير من شجاعة و إقدام في مواطن الزحف و الاستنفار.

أما نص المبايعة فقد حررته شخصية هي أبو طالب و جاء فيها على وجه الخصوص:

"بعد انعقاد البيعة للإمام المعظم و الأمير الجليل المفخم، ابن أحينا، السيد عبد القادر بن محي الدين، أحيا الله بهما الدين و أعانهما على القيام بأمور أهله...

بايعناه على السمع و الطاعة و امتثال الأمر و لو في ولد الواحد منا، أو نفسه و قد منا نفسه على أنفسنا و حقه على حقوقنا".

لم يفوت الشاعر الشعبي فرصة المبايعة ليعبر بوضوح عن حب الأهالي و تعلقهم بالأمير منوها بخصاله الحميدة و شيمه الرفيعة.

صال الدهر عليها انطوت عليها السنين[27]*** درقت مع الأيام خبرها غاب

ما تحصيها إلا قليل من الوالعين***قصة بن محي الدين مير الأعراب

هذه حالة الأيام كأنك أنت فطين***البعد ينسى و الزمان غلاب

قصة بن محي الدين يا الكتاب*** أتأمل فيها يا فطين خمم

ولد القيطنة هاشمي شريف الأنساب***علم و حكمة و الجاه و النعايم

نصروه أعرابها و بايعوه الأنجاب*** قضيا و مفاتا شيوخها و عالم

ناصر الدين أحياه يقهر الكافرين***توكل على الله ربنا النواب.

صورة ناطقة عن التغيير الذي لحق بالجزائر، فقد تغيرت أحوالها إذ كانت تنعم بالرفاهية و الأمن و الطمأنينة، و ها هي قد أضحت تحت وطأة الاحتلال الذي عاث فيها فسادا محولا واقعها إلى سلب و نهب و تشريد و كأن عنصر الزمن لم يعد في صالحها كما كان من قبل.

و ينتقل الشاعر لشخصية الأمير عبد القادر و مبايعته طالبا من الإنسان التفكير و التدبر في شخصية هذا الرجل الذي ينحدر من نسب شريف.

---

[27]- مبايعة الأمير عبد القادر الشاعر ابن عبد الله ص48.
المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون إعداد و تقديم: جلول يلس-أمقران الحفناوي ش.و.ن.ت الجزائر.

يتمتع بالعلم و الحكمة و الجاه، جاءته الأعراب من كل مكان قصد مبايعته و نصرته مستسلمة لأوامره في الجهاد الذي سوف يخوضه ضد الاحتلال البغيض.

إن انتصار الأمير عبد القادر على الأعداء هو في حقيقة الأمر نصرة للدين و الشريعة السمحاء، فهو ليس قائدا ناصرا لنظرائه بل هو التوحيد للشرك هازم،و لهذا توكل الأمير على الله، و سار قدما بدعم من جميع الأهالي و الأعراب.

لقد نجح الأمير عبد القادر خلال فترة وجيزة أن يكسب دعم الأهالي و فرض الطاعة على أغلبيتهم.

لقد أدركت قوات الاحتلال خطورة الأمير عبد القادر، و شجاعته في شتى ميادين النزال و بالتالي أوكلت فرنسا خطة القتال إلى الجنرال دي ميشال حيث انتهج هذا الأخير في ولاية وهران سياسة تمتد على مرحلتين:

لقد ركز الجنرال في المرحلة الأولى كل جهوده على القيام بعمليات عسكرية واسعة النطاق حيث جند قوات معتبرة خرج بها لمقاومة العرب.

أما في المرحلة الثانية فقد غير هذه السياسة و أبدى رغبة واضحة في الميل إلى الهدنة و السلم مع العرب.

لقد خرج الجنرال دي ميشال في المرحلة الأولى بقوات عسكرية تتكون من ألفي رجل و شن حملة واسعة النطاق على قبيلة الغرابة في ضواحي وهران، حيث ألحق بها خسائر معتبرة في الأرواح، و في 4 يوليو 1832 زحف الجنرال بقوات عسكرية على مدينة أرزيو حيث دخلها بدون مقاومة تذكر.

و لكن في المقابل سجل الأمير عبد القادر نتائج ايجابية في مدينة تلمسان حيث أخضع أهاليها للطاعة، و لما عاد الأمير إلى مدينة معسكر في 20 يوليو 1834 تلقى نبأ وفاة والده محي الدين الذي كان يشغل مكانة كبيرة في قلبه إلا أن هذا المصاب لم يفت في عضد الأمير عبد القادر الذي صمم على مواصلة المقاومة خدمة لوطنه و شعبه، حيث استمر في الغارات على كل السواحل بل حارب حتى القبائل الموالية للعدو بالقتل و السبي حتى أذعنت الطاعة و استسلمت لأوامره.

و بذلك ضيق الأمير عبد القادر الخناق على قوات الاحتلال في جميع المجالات حتى ضاقت الأرض بقوات الاحتلال رغم عددها و عتادها.

من هنا تبدأ المرحلة الثانية في سياسة الجنرال دي ميشال حيث اقتنع هذا الأخير أن الاتفاق مع العرب هو السبيل الوحيد الذي يضمن له السلام.

و بعد تفكير عميق اتضح للجنرال أن الأمير عبد القادر هو الوحيد الذي يجب أن يتم معه الاتفاق، إذ هو الوحيد القادر على احترام الاتفاق، فكتب إليه رسائل عديدة يدعوه من خلالها إلى قبول الصلح إذ كان الأمير يبدي دائما عدم رغبته في السلم، و بعد تردد قبل الأمير عبد القادر الاتفاق بشروط جزائرية تتمثل فيما يلي:

1- أن يكون للعرب الحرية بأن يبيعوا و يشتروا كل ما يتعلق بالحرب.

2- تكون المتاجرة في مرسى أرزيو تحت ولاية (أي مراقبة) الأمير كما كان قبلا، بحيث لا يجوز شحن شيء إلا منه، و أما وهران، و مستغانم فلا يرسل لهما إلا البضائع اللازمة لأهلها.

3- يلزم الجنرال بترجيع من يهرب إليه من العرب، و ألا تكون له سلطة مع المسلمين الذين يحضرون عنده برضا رؤسائهم.

4- لا يمنع مسلم عن الرجوع إلى بيته متى أراد[28].

لقد رافق هذه المعاهدة بعد دخولها مرحلة التطبيق خرقا من طرف السلطات الفرنسية مبررة ذلك بأن الجنرال دي ميشال قد تجاوز صلاحياته و أنه لم يخبر القائد الأعلى بذلك، و هي مبررات واهية.

[28]- المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر - اسماعيل العربي- سلسلة الدراسات الكبرى (الشركة الوطنية للنشر و التوزيع) ص29/28/27.

و الحقيقة أنه ازدادت مخاوف الاحتلال من ازدياد قوة الأمير و اتساع نفوذه على معظم القبائل، إذا كان كلما مر في طريق إلا و ازدادت سمعته، و رأى فيه سكان المناطق التي حرمت من الأمن فترة طويلة أنه الوحيد القادر على قيادة المقاومة الشعبية، فقد عبر له كل قائد من قادة القبائل على استعداده للجهاد، و تقديم كل يد العون له، فهو الرجل الذي ينحدر من سلالة شريفة عرفت بالورع و التقوى، و هو قبل كل شيء ابن الوطن، و لا يمكن له بأي حال من الأحوال أن يخون وطنه.

و هكذا أصبحت سمعة الأمير تسبقه أينما حل، حيث كانت الأصداء انتصاراته حية يتردد صداها في كل مكان، تحفظها الأذهان و تتغنى بأمجاده و بطولاته النساء و الرجال.

يقول الشاعر ابن الصحراء:

بن محي الدين *** رايس ذاك الجيش الزين

زهوا الدارين *** و عطاهم ربي العليا

فارس الاعراب *** بالسيف يقلب تقلاب

قاطع رقاب *** القوم النصرانيا

عبد القادر *** جاب معاه أعلام الخير

شباب صغير *** يشالي في المشليا

طوع رياس *** من معسكر لمدينة فاس .

اشبايل الأجناس *** كل يوم تجيه هدايا

في بوقزول *** مع الكافر راس الغول

تركوا مذلول *** معظم هذا القصيا[29]

يظهر الشاعر ابن الصحراء السمعة الشعبية التي أضحى يتمتع بها الأمير عبد القادر و المكانة المرموقة في نفوس الأهالي الذين اعترفوا بقيادته طواعية، و قد أبهرهم بانتصاراته التي شهد لها الصديق و العدو، فالشاعر الشعبي لا يتحدث عن الأمير قبل الإشارة إلى نسبه، فهو ابن محي الدين الذي قاد جيشا قبل ابنه فدخل به المعارك الحمراء بقلب أسد و حقق معه انتصارات كثيرة و باهرة، و ها هو اليوم ابنه عبد القادر يخلفه و قد جاء معه الخير الكثير، إذ أصبح الشباب يهتف بشجاعته و بطولاته و هو الذي هزم قادة كبارا تخرجوا من مدارس عسكرية عليا، و بالتالي اعترفت به الدول الأجنبية وأضحت الهدايا تتوافد عليه من كل الأجناس معترفة بقيادته و زعامته، من جهة و بشخصيته السمحاء المتشبعة بالمبادئ و الخصال المنبثقة من الشريعة السمحاء من جهة أخرى.

لا يمكن للباحث في شعر المقاومة الملحون عدم الوقوف عند معركة المقطع الشهيرة و التي ألحق فيها الأمير بقوات الاحتلال هزيمة نكراء.

[29]- المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون إعداد جلول يلس-امقران الحفناوي ش.و.ن.ت-ص 107.

تبدأ هذه المعارك بخروج القائد الفرنسي تريزل من مدينة وهران في اتجاه مدينة معسكر و هو على رأس جيش قوامه خمسة آلاف رجل مجهزين بقافلة تتكون من عربات و مدافع جبلية و مؤونة، و قد عسكر على ضفاف نهر تليلات في 19 يوليو 1839 و قد كان القائد الفرنسي يهدف من وراء هذا التحرك تخويف القبائل الخاضعة لسلطان الأمير و ممارسة ضغط سياسي على قائد المقاومة.

و لكن لما بلغ أمر هذا التحرك مسامع الأمير عبد القادر تحرك من معسكر على رأس قوة تتكون من ألفين من المشاة، و نزل في غابة خفيفة الكثافة (حرش مولاي سماعيل) و أخذ يراقب من فوق ربوة كل تحركات الجيش الفرنسي، و قد كان جيش الأمير قد عرف بحسن التدريب و التنظيم حيث كسب تجارب كثيرة من جراء المعارك التي خاضها في السابق.

و في26 يوليو 1839 دخل الجيش الفرنسي إلى حرش مولاي سليمان حيث استقبلته نيران المقاومين فتشتت جموع العدو و فقد هذا الأخير الكثير من جنوده و عتاده.

قرر الجيش الفرنسي الرحيل من مدينة معسكر و لكنه أدرك صعوبة سير العربات في خط مستقيم نظرا للمسالك الوعرة، فقرر الجنرال تريزل أن يقوم بدورة حيث يمر بمضيق يقع بين الهضاب و المستنقعات قبل الانحدار تجاه البحر في مجرى يسمى "المقطع"، فأدرك

الأمير عبد القادر أن جيش الاحتلال لا مناص له سوى المرور بالمقطع و أنه إذا تمركز فوق السهول المشرفة على المقطع فإن جيش الاحتلال سوف يكون تحت رحمته..

و لما اقتربت قوافل العدو من المقطع كانت دهشتهم كبيرة و هم يرون أنفسهم يستقبلون بلمعان السيوف تحت أشعة شمس محرقة، حيث أخذت الصخور الكبيرة تنحدر من أعالي الجبال و هم في هلع و دهشة.

و في هذه الأثناء زحفت قوافل جيش الأمير عبد القادر على مؤخرة الجيش في محاولة لفصلها عن المقدمة و قد تم لها ذلك.

لقد انقسم الجيش الفرنسي في غير نظام و انفتحت ثغرة في صفوفه و تحولت هجماته إلى تراجع.

"لم يبق منه شيء يشبه جيشا منظما، فإن الجنود و الضباط يتصرفون و كأنهم أصيبوا بجنون، فهم يتبادلون جملا متقطعة غير مفهومة، هي أقرب إلى الهذيان منها إلى الكلام.

و قد كان بعضهم يغنون و يرقصون، و هم في حالة عري كما ولدتهم أمهاتهم بعدما رموا بأكياس زادهم و تخلوا عن ثيابهم، و لما وصلوا إلى مدخل المضيق لم يلح لهم المقطع و لا البحر الذي كانت تحجبه عن أعينهم التلال الرملية.

لقد توهموا أنهم دخلوا في مضيق لا مخرج منه... فاستولى عليهم الرعب، و هكذا راحوا يلقون بأنفسهم بالغرق. و أما الجنرال تريزل و رئيس أركانه فقد أعياهم المجهود المضاعف لتسكين أنفس الجنود و حملهم على البقاء في قارعة الطريق"[30].

لقد كانت فجيعة القائد الفرنسي كبيرة و هو يجر أذيال الخيبة، بحيث أضاع آمالا كبيرة و هو الذي كانت حياته حافلة بالشجاعة و البطولات، لقد بالغ القائد في تقدير قوته و أحط من قيمة جيش الأمير عبد القادر و قد كان هذا الفشل الذريع سببا في رغبته و قناعته بتقديم استقالته و قد أرجع فشله إلى أمرين: إما غلطة تقدير أو حظ عاثر، فقد أذله هذا النصر الذي حققه الأمير عبد القادر، و بعث في صفوف قوته الهلع و الذعر، أما شعور الأمير فلم يكن زهوا و فخرا بهذا النصر الذي لا تشوبه شائبة، إذ لا يمكن أن يغيب على رجل يمسك السيف في يد و السياسة و الديبلوماسية في يد أخرى أنه كسب معركة و ليس حربا.

إن الاستعمار الفرنسي لا يزال قائما بعدته و عتاده و المقاومة لا تزال طويلة، لقد انتشر خبر النصر بسرعة بين القبائل الجزائرية حيث استقبل الأهالي هذا الخبر بكثير من الفرح و السرور و قد أوقد الناس الشموع في الليل و رقص الأطفال فرحا على أضوائها في مختلف البلاد و لا سيما في مدينة معسكر عاصمة الأمير.

---

[30]- المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر - اسماعيل العربي- سلسلة الدراسات الكبرى- شهادة أحد الكتاب- ص96.

لم يفوت الشاعر الشعبي نشوة هذا النصر حيث انطلق لسانه بقصائد شعرية رائعة، يقول ابن عبد الله:

من عبد القادر جاء رسول معزوم *** يا بن سالم بالنجوع قفل

هدت مجانة للطراد مقيوم *** و الزيبان أحرك بالجيوش عول

فرسان الهدة هاينين الاقارب

معظم هذه الغزوة فاتت الأولين *** حضروا فيها كم من أبطال صلبه

الأبطال الزينة أعنى اشبال متسابقين *** أبطال انمامشه فيها قضا و نوبة

أوز لاقن الشجعان للشناء طائقين *** و تسمسلت ايفاجوا كل كربة

ناض الجهاد أرقى اقوى المشهاب

لو نحكي لك عاللي طرى و ما صار *** غزوات كثيرة ما انطيق نحسب

عد الحضنة و نجوعها الغوار *** و جبال أعمور و زيدها المرقب[31]

لقد استطاع الشعراء تجسيد هذا النصر، و التعبير عن فرحة الأهالي، إذ وصفوا و هللوا بالأمير الذي خاض في ميادين الزحف المعارك الحمراء، فجنوده رادة البطولة و النصر و رفع اللواء.

[31]-المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون- اعداد و تقديم جلول يلس و أمقران الحفناوي ص 51.

بل يتأسف الشاعر عن الكثير ممن لم يشاركوا في هذه المعركة التي تعتبر شرفا لكل فارس، فقد استطاع هذا النصر أن يفرج كربة الأهالي و هو من الناحية المعنوية دعما كبيرا لجيش الأمير عبد القادر.

لقد كان لهزيمة المقطع أثرا كبيرا على الحكومة الفرنسية و الرأي العام الفرنسي الذي كان لا يدرك بدقة ما يجري في الجزائر، و من هنا استغل بعض الجنرالات الفرنسيين هذه الهزيمة ليطالبوا الحكومة الفرنسية بتعزيز الجيش الفرنسي و إمداده بالعدة و العتاد قصد توسيع قاعدة الاحتلال، و بالتالي أدركت الحكومة الفرنسية أنها أمام وضع يقتضي القيام بعمل قصد الانتقام للشرف الوطني، فأوكلت مهمة غسل عار الهزيمة إلى الماريشال كلوزيل فهو القادر على مقاومة المقاومة الجزائرية.

لقد نظم المعمرون استقبالا منقطع النظير للماريشال المذكور عند وصوله الجزائر حيث استقبلوه بحفاوة لا نظير لها، إذ هو الذي سوف يخلصهم من شوكة الأمير عبد القادر و مقاومته.

لقد كان الأمير عبد القادر يدرك جيدا أن الاحتلال سوف لن يفوت الفرصة لأخذ الثأر و الانتقام لضحاياه، فتمركز بمدينة معسكر على رأس جيشه و قد اتخذ إجراءات أمنية كبيرة للدفاع عن عاصمته التي كان يعرف أنها سوف تكون أول هدف لقوات

الاحتلال، حيث أخرج منها الودائع الثمينة و أوراق الدولة و نقلها إلى ضريح خارج المدينة، ثم شرع في إقامة التحصينات و وضع الخطط لتنظيم و تعزيز المقاومة.

لقد أدرك الأمير عبد القادر أن وصول الماريشال كلوزيل إلى العاصمة معسكر يتطلب قطع مسافة طويلة عبر الوهاد و الشعاب، و لذا اعتمد على خطة عسكرية تتمثل في إنهاك قوة الماريشال قبل وصوله إلى المدينة و ذلك بشن هجمات خاطفة في الطريق تتمثل في عملية الكر و الفر، و لقد أبلى جيش الأمير في هذه الهجمات بلاء حسنا حيث فقد الكثير من أفراد جيشه رغم مواصلة الجيش القتال بشجاعة نادرة.

"كان أثر هذه المرحلة هائلا، خصوصا حول الأمير الذي سقط أمامه كاتبه و حامل علمه، أما هو فقد كان يزهو فخورا بأن يرى نفسه هدفا لجميع القذائف. و كذلك كان يروح و يغدوا على فرسه الأسود الذي كان يسير بخطى وئيدة غير معجلة متحديا براعة الطوبجية الذين لم يملكوا أنفسهم و لم يستطيعوا منعها من الإعجاب بشجاعته"[32].

لقد واصلت القوات الفرنسية سيرها نحو معسكر رغم الهجمات المتتالية لجيش الأمير عبد القادر، و قد حدث الهلع لما بلغ مسامع الأهالي أن الماريشال يتجه صوب المدينة و أن المعارك الضارية التي خاضها الأمير رفقة جيشه لم تؤثر في قوة العدو و عزيمته حيث ثارت فيهم غريزة السلب و النهب فأخذوا ينهبون كل ما وجدوه في طريقهم من أموال

[32]- المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر - اسماعيل العربي- سلسلة الدراسات الكبرى- ص112 (شهادة الذوق دورليان)

و متاع غير آبهين بالمبادئ أو عقيدة الأهالي، و قد حاول الأمير أن ينقذ الموقف و لكن بدون جدوى، إذ كانت حشود الناهبين تثب على الغنائم كقطعان الثعالب.

ولما وصل الماريشال كلوزل المدينة وجدها شبيهة بالشبح إذ هاجرها سكانها و لم يبق فيها إلا العدد القليل، و في اليوم الموالي وقف فارس ينم وجهه الصبوح عن شعور الكآبة و خيبة الأمل على أبواب العاصمة المهجورة، و راح يتأمل أنقاضها، إنه الأمير عبد القادر:

راكب صوشة *** كيف جدية الأدميا

النجح مشا *** و ما جاني أخبار عويشا

العظم أرشا *** ناري منها مقديا

مولى بغداد *** بن خيرة حرم القصاد

الوحش انزاد *** يا سيدي نسف عليا

قابل الانشاد *** ابن الصحراوي في الأوهاد

ما طاب الرقاد *** كل ليلة عيني حيا[33]

يمثل هذه اللوحة الحزينة عبر الشاعر ابن عبد الله عن كآبته للبلاء الذي ابتلى به الأمير عبد القادر و جيشه حيث أنهك الحزن قواه، فوهن العظم منه و اشتعل الرأس شيبا.

[33]- المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون -إعداد جلول يلس-امقران الحفناوي -ش و ن ت ص107.

لقد فقد النوم حيث أصبح ساهرا و هو يرافق شتى أنواع الهموم و الأحزان لما آل إليه الوضع، و كيف سيكون الحال في المستقبل خاصة و أن قوات الاحتلال عازمة على البقاء و إخضاع السكان إلى شتى أنواع الذل و الهوان.

إنها نهاية قصة الحملة التي خططت لها فرنسا لأخذ الثأر و محو عار هزيمة المقطع.

إنه بالرغم من ذلك فإن هذه الهزيمة لم تثن من عزيمة الأمير بل جمع شمل الأهالي، و نظم الجيش من جديد و واصل المقاومة التي مرت بمعاهدة تافنة الشهيرة و التي نجحت فيها الدبلوماسية نجاحا كبيرا.

لقد أدركت سلطات الاحتلال أنها جد بعيدة عن تحقيق أهدافها الأساسية و المتمثلة في القضاء على نفوذ الأمير عبد القادر، حيث أصبحت تواجه مقاومة فعالة، فعجزت على توفير الأمن و الطمأنينة للمعمرين.

لتحقيق هذه الأهداف فكرت فرنسا و على رأسها القائد بيجو وضع خطة تتمثل في إنشاء المراكز العسكرية و المراقبة حيث تكون بمثابة قواعد للتمرينات و انطلاق العمليات الحربية.

لقد فكر القائد بيجو لإنجاح خطته القضاء على معنويات الشعب و تحطيم إرادته و هي خطة تقوم على الدعاية بسلام نية الفرنسيين.

رقابة للاستيلاء على ما يقع تحت يده، في جو يسوده التحرر من الطاعة و النظام.

اعتزل الأمير عبد القادر بنفسه في خيمة ليتأمل خطط القدر المحكمة و ليفكر في المستقبل.

و هكذا لم تكن الطريق أمام ابن محي الدين ابن الزاوية الذي ارتقى بشجاعته و حسن تدبيره، لم تكن مستقيمة و لا مفروشة بالأزهار، و لكن كل ما واجهه من الأخطار و العقبات يبدو هينا أمام الوضع المأساوي الذي يشهده اليوم.

ونختم الحديث عن شخصية الأمير عبد القادر بمقولته و هو يعرف ما يدور في أذهان رجاله "كل ما كنا نحبه و نتعلق به، كان يعوقنا عن الوصول إلى غايتنا. أما الآن و بعد ما فقدنا كل شيء، فقد أصبحنا أحرارا مجردين، و شغلنا الوحيد، هو مقارعة العدو و مصارعته، و لو كنا حاضرين لحاربنا من أجل نسائنا و أطفالنا، و لكنه لا مفر من القدر و لابد من نفاذ أحكامه"[34].

كان من الضروري الإشارة في هذا التحليل إلى شخصية الأمير عبد القادر الذي اعترف له التاريخ بمقاومته و شجاعته و حكمته و علمه، و ليس من نافلة القول إن قلنا أن شخصية الأمير تحتاج لبحث طويل بل لبحوث معمقة.

[34]- المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر - اسماعيل العربي- سلسلة الدراسات الكبرى- ش و ن ت – ص142.

إن بطولة الأمير عبد القادر الجديرة بالإكبار و البقاء و الخلود في دنيا الناس، و هو واحد من رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، و سجلوا بأعمالهم و فروسيتهم في ميادين النضال آيات الشهامة، إنه الروح الجماعية التي تربط أفراد الشعب بعضهم ببعض."بدأت قصة البطل، ذلك الرجل المطارد، الذي عجزت السلطات عن القبض عليه، و أعجز البحث عنه جيشا يعد أقوى الجيوش في أوروبا، كتب عنه أحد ضباط فرنسا، و هو الماريشال دي كاسيلان: هل يشرفنا في شيء أن نرى جيشا، يتألف من تسعين ألف جندي، عاجزا عن القبض على مناضل يقود خمسمائة فارس"[35].

من خلال ما سبق يتضح الدور الهام الذي لعبه الشعر الملحون في الحقل السياسي، لقد أثر في الأحداث و تفاعل معها بواقعية أحيانا، و ببعض المبالغة أحيانا أخرى، و هي مبالغة الخيال الذي تحركه العواطف المتأججة.

"و الحقيقة أن الشعر ببساطته الأخاذة، و رقة معناه، و بقدرته على الفعل في النفوس و التأثير في الضمائر و الوجدان، لعب دورا مهما و مؤثرا، ليس في مواكبة الأحداث السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و تطورها و حسب، و إنما في صنع الأحداث،

[35]- الأمة و المجتمع- مصطفى الأشرف - ترجمة حنفي بن عيسى- المؤسسة الوطنية للكتاب - ص88

و في دفع عجلتها و إلهاب وقائعها، و شحن النفوس بالحماس و الفعل في هذه الأحداث و الانغمار المتحمس فيها"[36].

لقد استطاعت الحقبة التاريخية التي مر بها الشعب الجزائري إبان الاحتلال، أن تصنع أبطالا، تركوا بصمات خالدة في تاريخ الجزائر، رغم تمادي العدو في تزييف القضية الجزائرية، و تشويه المقاومة الشرعية التي خاضها أولائك الرجال، فبالرغم مما قام به الاحتلال من سلب الأرض، و الزج بالناس في السجون، و السطو على التراب و الميراث، و التمادي في إذلالهم، فقد وقف أولائك الرجال في وجهه شامخين، و من ورائهم الشعب متماسكا لا يتزعزع، فظل صوتهم يرن في أذن كل وطني غيور. لقد خلقت فترة الاستعمار الفرنسي للجزائر أبطالا رفضوا الظلم "و قاموا بسلسلة من الأعمال البطولية لفتت إليهم الأنظار، فناصرهم الشعب و شد أزرهم، و على مر الأيام خلقت منهم أبطالا بارزين، بما نسج حولهم من أعمال خارقة، و وضعهم في إطار عجيب يمارسون فيه بطولاتهم"[37].

لم تخل بيئة من شعر المقاومة الذي عرى المحتل و فضحه و كشف كراهية الشعب له، كل ذلك بوطنية خالصة، و بالتالي يمكن اعتبار كل شعر يدعو إلى الجهاد و حث

[36]- الأدب و الفنون الامازيغية الفرقاني الحبيب- مقال في أعمال الدورة الثالثة لجمعية الجامعة الصيفية- أكادير-1988- ص22.
[37]- القصص الشعبي في منطقة عين الصفراء- عبد القادر خليفي - رسالة ماجستير نوقشت بمعهد الثقافة الشعبية- 1990/1991 ص95

المواطنين على رفض الدخيل، و ما أنجز عنه من ظلم و بؤس و شقاء، شعرا وطنيا، بغض النظر عن مفهوم الوطنية المعاصر.

تعتبر البلاد الإسلامية كلها وطن الشاعر الشعبي، ليحل محله فيما بعد الإطار السياسي في منطقة جغرافية محددة المعالم، دون فقدان الروح الدينية، و انطلاقا مما كان يحدق بالأمة من مخاطر، و ما تميز به من روح جماعية، فإن الشعور الوطني مظهرا من مظاهرها عبر الأزمان.

إن دفاع المجتمع الجزائري عن وطنه، هو دفاع عن الذات، حيث اتخذت أعماله حجما جديدا في مواجهة الدولة الاستعمارية، و رفض عمليا شرعيتها و "التأكيد على ديمومتهم عبر تاريخ يواصل انحرافه، رغم تفتت بناهم السياسية"[38].

إن الشعر الشعبي ليس خيالا فحسب، و إنما هو قضية و رسالة، و تعبير عن رؤية الشاعر عما يدور في محيطه من صراعات مختلفة، فمن هذه الزاوية يستحيل نكران دور الشاعر الشعبي في تصويره، و تعبيره عن مختلف مظاهر أمته.

فالبعد الوطني يشكل سدى هذا المجتمع، و أبرز مقوماته، فهو من خلال تصويره لمعاناة مجتمعه، يريد تمتين عرى الوطنية، فهو من الفنون القولية التي صمدت أمام ثقافة العدو و مقوماته.

[38]- الاستعمار و الصراعات الثقافية في الجزائر- عبد القادر جغلول- دار الحديث- بيروت 1984 - ص177.

لقد أصبحت القصيدة الشعبية تؤدي دورا هاما و تجديدا يتمثل في المحافظة على التوازن النفسي بين أفراد المجتمع، و إعطاء معنى لوجودهم و كيانهم."لقد بذل الاحتلال عدة محاولات لتوظيف عصبيات متناظرة، و تعمد بوعي القضاء على كيان المجتمع، بل تفتيت كل عناصر الأصالة و التاريخ، و لكن تلك المحاولات لم تنجح، و ظلت جماهير الشعب متمسكة بحرسها الضمير الشعبي الذي يرفض أية محاولة للفصل أو التجزئة منذ القديم، و حاول أو ينظر باستمرار نظرته إلى الوطن الواحد يشترك في الهموم و المسؤولية، كما يشترك في المصير و التبعية"[39].

أدرك الشعب الجزائري، أن الدخيل يحاول تجريده من كل مقوماته و خصوصياته ليحرله إلى مجرد قطيع من الغنم، فقد كان بمثابة آلت هدم تجرف كل ما تجده في طريقها.

لقد انتزع عنوتا الأراضي الزراعية، و قضى على الأسواق التجارية و حطم الصناعة التقليدية، ليتحول المالك الحقيقي مجرد عبد يأكل من فتات طاولة سيده.فقد السكان "لاستقلالهم السياسي، و تحطيم إنتاجهم الفلاحي و الزراعي، و تخريب صناعاتهم التقليدية و القضاء على أسواقهم التجارية و هلاك حيواناتهم"[40].

---

[39] ـ الأدب الشعبي و الوحدة العربية ـ فاروق خورشيد ـ المجلة العربية للثقافة ـ العدد 28 مارس 1995

[40] ـ "المجاعة بالجزائر أواخر عهد السبيبات من ق19" بحث بوعزيز من مقالة مجلة الأصالة ـ العدد 33 ماي 1976 ص

البعد الاجتماعي في شعر المقاومة الملحون:

إن الانعكاسات المتداخلة و الظروف المتشابكة التي تعرضت لها المقاومة الجزائرية، عبر السنوات المتتابعة، و خاصة المقاومة الكبرى التي شهدتها الساحة الجزائرية بقيادة الأمير عبد القادر، كل تلك العوامل المتداخلة كان لها الأثر الكبير على حياة الناس العامة، و على تطور العلاقات الاجتماعية.

لقد واكب الشعر الملحون كل هذه التطورات و رصد الظروف التي فرضت على الشعب الجزائري و التي لا عهد له بها من قبل.

ارتبط الشعر الملحون ارتباطا وطيدا بحياة الناس و معاناتهم بل ساير الأحداث المتاعقبة فنقلها بصدق و أمانة، و هو أمر طبيعي نظرا لكون الشاعر أحد أفراد هذا المجتمع، فهو يتزامن مع تتبعه لتطورات المقاومة المسلحة، إذ أضحى الشاعر يدعو إلى مقاومة أخرى، و من نوع آخر، مقاومة الذات و ترويض النفس و هي أكثر شمولية من المقاومة المسلحة.

لقد دعى الشاعر الشعبي إلى الصبر و الثبات و مقاومة الجوع و الحرمان مع التعبير عن مآسي الناس و جراحهم و متابعتهم اليومية، فهو ابن بيئتهم يستكنه خفاياهم و يتألم بأحاسيسه المرهفة لأوضاعهم الاجتماعية و ما آلت إليه الحياة اليومية بشكل عام.

"إن الشعر الذي كان يلهب المشاعر، و يحمس الناس، بل و يترسم خطى الأبطال في المعارك، و ما يحقق هؤلاء من انتصارات في ساحات القتال، أضحى يشتكي من الوضع المؤلم، و يتبرم من الحياة التي سادها البؤس و الشقاء و خيم عليها الذل و الهوان و تحولت فيها المساجد إلى كنائس"[1].

لقد نشطت حركة الاستيطان نشاطا واسعا، حيث غزا الاحتلال الأرياف و المناطق الداخلية و أكثر فيها توطين العنصر الأوروبي، فقدم لهم أراضي الأهالي مجانا. و حول هؤلاء إلى حماسين يكدون من طلوع الشمس إلى غروبها تحت وطأة الجلادين.

لقد قدمت سلطات الاحتلال كل التسهيلات للعنصر الأوروبي في حين جردت الجزائري من أبسط لوازم الحياة الكريمة.

أنشأت فرنسا القرى لهؤلاء المعمرين بعدما رأت رغبتهم الجامحة في الاستيطان فمنحتهم أغلبية الأراضي الخصبة التي اضطر أهلها تحت وطأة القهر إلى بيعها في المزاد العلني، بل البعض قد سلبت منهم عنوة لتسلم لهؤلاء المعمرين، و بالتالي ترك الأهالي أراضيهم الخصبة و استسلموا للجوع و الفقر و الحرمان.

---

[1]- دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة 1830-1945- د. التلي بن الشيخ. ش.و.ن.ت. ص250.

لقد ارتفع عدد المعمرين في المناطق الداخلية. إذ كانوا يعتبرون الزراعة و الفلاحة مشروعا استثماريا يذر عليهم ربحا وفيرا و ليس مصدر عيش فقط، و من هنا كان الهدف الأساسي بالنسبة لهم هي الثروة و ليس خدمة الأرض و الإنتاج.

لقد كان من نتائج ذلك أن تحطمت عائلات بأكملها و التي كانت تمثل القيادة في المجتمع إذ دفعها الاحتلال إلى التشرد و التمزق.

تم تمزيق أغنياء المدن الكبرى و تشتيتهم إذ كان أغلبهم من التجار و الحرفيين و المثقفين حين زاحمت الجاليات الأوروبية أعمالهم و هي جالية تتسم بكل أنواع الأنانية و الجشع ناهيك عن الغلضة و القساوة.

لم يكتف الاحتلال بمصادرة الأراضي الفلاحية بل قام بحرق الغابات و إتلاف الثروة الحيوانية فانخفض عدد الأغنام و الأبقار التي كانت مصادر عيش هؤلاء الأهالي، إذ أصبح بعض الفلاحين يمارسون فلاحة ضعيفة المردود، لا تكفي أحيانا حتى لسد حاجياتهم و حاجيات عائلاتهم اليومية، مع إراحة أراضيهم أحيانا لمدة عام بأكمله.

لقد تعرض الأهالي إلى جانب هذه الظروف القاسية لمختلف النكبات التي توالت عليهم، فتفشت فيهم الأوبئة و الأمراض المختلفة من جراء تعاقب سنوات الجذب و القحط، فقد أضاع معظمهم كل شيء و تحولوا إلى مجرد أجراء بسطاء عند المعمرين مقابل أجور

زهيدة، لا تفي بأبسط ضرورات العيش الكريم، إذ أصبح العامل يعود مساءا و هو يجر أذيال الخيبة و الحزن ليجد أطفالا جياعا في انتظاره.

أما من الناحية التجارية فقد سيطرت الرأسمالية الاستعمارية على باقي السوق الجزائرية و فتحت المجال للمنتجات الفرنسية لتغطي ما تبقى من إنتاج و حرف الأهالي.

لقد أصبحت البضائع الفرنسية تنتشر بشكل واسع في الأسواق الجزائرية لتحطم مصادر عيش الأهالي من حرف و صناعات بسيطة حيث طرد الأهالي من أراضيهم و العمال من وظائفهم.

كان من نتائج سيطرة المعمرين على البلاد و خيراتها إضعاف السكان الشرعيين الذين انتشرت في أوساطهم الفاقة من جراء تحولهم إلى عمال بسطاء أو عاطلين مزمنين عن العمل فانخفض الدخل السنوي للفرد الجزائري و أضحى غالبية السكان يسكنون الأكواخ أو الخيم بين عشرة أو خمسة أشخاص في كل خيمة في وضع اجتماعي مزري، فلا عناية صحية و لا غذاء كاف.

إن الأوضاع الاجتماعية المزرية دفعت بالكثير من الأهالي إلى هجرة الأرياف حيث الظروف القاسية و التزوح صوب المدن الكبرى فرارا من الاضطهاد و رغبة في الحصول على عمل مهما كان نوعه، فكرامة الفرد لم تعد لها في هذه الحالة أدنى اعتبار.

لقد أضحت معظم العائلات الجزائرية تعيش بطالة مفروضة لا يعمل أفرادها إلا بعض الأعمال المؤقتة كالحمالة و مسح الأحذية و بيع الصحف و بالتالي أصبح نشاطهم يتمثل في صراع من أجل البقاء.

"إلى جانب القهر و الزجر و التمييز العنصري الذي كان الأهالي يتعرضون له أضحى الفرد الجزائري يعاني معاناة شديدة من جراء الشتم و الضرب فهو لا يدري كيف يقضي سحابة يومه و لا سواد ليلة بل أصبح و كأنه حريص على بلوغ أجله لكي يستتر تحت التراب"[2].

لقد جسد الشعر الملحون هذه الأوضاع المزرية التي كان يعيشها الأهالي حيث اعتنق الناس مقاومة أخرى تتمثل في الصراع الذاتي من أجل البقاء، إلا أن الصورة التي نقلها الشعر الملحون تختلف من شاعر لآخر حسب النظرة السطحية أو العميقة للأوضاع، و حسب الموروث الثقافي لكل شاعر إن صح ذلك، بل حسب درجة تأثير الأحداث في نفسية الشاعر. و لكن الحقيقة أن كل شاعر كان ينقل الأوضاع و تأثيرها في نفسيته بكل صدق و إخلاص، بل لا نبالغ إن قلنا عن معظم القصائد الملحونة أنها جسدت ما يسمى بصدق التجربة الفنية.

[2]- سياسة التسلط الاستعماري و الحركة الوطنية 1830-1954 - يحي بو عزيز ديوان المطبوعات الجامعية - الساحة المركزية بن عكنون - الجزائر - ص59

القط هميم يختلج من ظل الفار *** الباز مع العقاب قصر

ريت الهاما المسميم و الخداع احبار *** لجت الحيل في المشاور

مسبوقهم الحمير و عمات الأبصار *** اليهودي عاد بطل غازر

الجيد و الشريف ما يسواو دينار *** لا قاضي لا امام طاهر

من كثر الذنب و النميمة و المنكار *** يا ربي و احفظ الجزائر

في فضل جوابنا تصدفهم رجفا *** بعد ما تبقى قول قال فلان

حق المسكين ضاع بين الخطافا *** و شهود الزور واقفا تحكى صلبان

القاضي شوفته تخوف مخطوفا *** ما يحملني القليل يبغي بالاحفان

ثعالب و ذياب وقفوا عن جفا *** ما خافوا ليلة القضا يصرعهم جان

من حكم الظلم هاربين أهل الحرفا *** بعد التجار ما بقى فيهم إيمان[3].

مزج الشاعر في هذه القصيدة بين التصريح و التلميح، فمن التلميح كثرة الوحوش و الثعالب حين غابت الأسود التي كانت تقهر الأعادي، و بالتالي أضحى القط يهاب الفأر فانتشرت كل أشكال الخبث و المكر و الدهاء، و من التصريح ذلك اليهودي الذي أضحى بطلا تهابه الناس بينما أصبح الشريف لا يساوي دينارا واحدا حيث سقطت هيبته و منزلته، بل حتى الأئمة و القضاة قد تنصلوا من العفة و الطهارة و لبسوا عباءة المكر

[3]- المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون- اعداد و تقديم جلول يلس-امقران الحفناوي- القصيدة للشاعر عبد السلام ابن احمد البقول ص(٨٧-٨٨)

و الدهاء، فحقوق الفقراء و المحرومين قد ضاعت وسط شهادة الزور و الباطل فأصبح القاضي همه الوحيد هو المنفعة الشخصية دون مراعاة أدنى أخلاقيات المهنة، و بالتالي صار الناس ذئاب و ثعالب و ثعابين يتغنون بالباطل و الأحكام الجائرة.

إن هذا الانحراف الفكري قد نقله الشاعر في صور متعددة هي في حقيقة الأمر صورة واحدة ذات ألوان مختلفة تنقل مأساة شعب يرزخ تحت نير الاستبداد و العبودية.

لقد استطاع الشاعر نقل هذا الواقع بصدق و أمانة و إخلاص في جو يغمره الحزن و الشعور بالذم، ذلك أن السفيل من الناس أصبح يتقلد مناصب مرموقة بخنوعه لقوات الاحتلال و هو في آن واحد يضغط على من هو أضعف منه و الضعيف يضغط على من هو أضعف منه في سلسلة يمكن أن نطلق عليها اسم السلم التنازلي للاستبداد.

استطاع الشعر الملحون مواكبة تطورات الأحداث و مسايرة التاريخ حيث أضحى يعايش الواقع المر بكل سلبياته، إذ أصبح الشاعر ينظر إلى الحياة بنظرات سوداء، فأخضع الواقع للمنطق و العقل.

يرى الشاعر الشعبي أن هناك تحولا لمفهوم الزمان و تغير لعجلة التاريخ إذ أصبح الأهالي يتجرعون يوميا الكؤوس العلقمية، فأسيئ لكرامتهم و خدش المعسرون كبريائهم، فأضحى العنصر اليهودي يتحكم في دواليب الحكم، و قوات الاحتلال تسوق الناس إلى

التراعات و لا عيون كافية للشرب، و لو لا الوعي الذي كان يتحلى به سكان الأرياف حيث كانت تتضافر جهودهم من أجل البقاء لكان الموت جماعيا.

جاء الاستعمار من أجل إذلال الشعب و تحويل المسلم إلى عبد مهان في وطنه، فكمم الأفواه و أصبح الإنسان الذي يجهر بكلمة الحق يندم عليها، لأن مصيره سيكون التعذيب و القهر و الزجر إلى أن يرضخ لحياة الذل و المهانة، و هو خلاف لما ادعته فرنسا حين قدمت للجزائر حيث وزعت منشورا تخاطب من خلاله كل الأشراف و العلماء و أكابر المشايخ تلتزم من خلاله بمبادئ و قضايا هامة.

"...أما أنتم يا شعب المغاربة، اعلموا و تأكدوا يقينا أننا آتينا ليس من أجل محاربتكم، فعليكم أن لا تزالوا آمنين و مطمئنين في أماكنكم و تعلموا أشغالكم و كل مالكم من الصنائع و الحرف براحة، ثم أني أحقق لكم أنه ليس فينا من يريد ضركم لا في مالكم و لا في أعمالكم، و مما أضمن لكم أن بلادكم و أراضيكم و بساتينكم و حوانيتكم و كل ما هو لكم صغيرا كان أو كبيرا فيبقى على ما هو عليه، و لا يتعرض لشيء من ذلك جميعه، أحد من قومنا بل يكون في أيديكم دائما. ثم أننا نضمن لكم أيضا و نعدكم وعدا حقيقيا مؤكدا غير متغير و لا متأول أن جوامعكم و مساجدكم لا تزال معهودة معمورة على ما هي الآن عليه و أكثر و أنه لا يتعرض لكم أحد في أمور

دينكم و عبادتكم فإن حضورنا عندكم ليس هو لأجل محاربتكم إنما قصدنا باشاتكم الذين بدأوا يظهرون علينا العداوة و البغضاء"[5].

إن هذا المقتطف من المنشور الطويل الذي وزعته فرنسا قبيل احتلال الجزائر يظهر التناقض الصارخ بين ما ادعته فرنسا من قيم و تمدن، و الواقع المر الذي يعيشه الأهالي يوميا حيث أضحوا يعيشون جحيما لا يطاق، أرجعه الشاعر الشعبي في كثير من الأحيان إلى القضاء و القدر، و الواقع عنده أمرا محتوما و السبيل إلى فك قيوده هو الإيمان و الرجوع إلى الله عز و جل.

لقد تشتت القبائل و تفرقت الأهالي فأصبح الشاعر لا يدري أماكنهم و أين نزلوا و ماذا فعل بهم القضاء و القدر.

أضحت الذكرى غالية و مراجعة الماضي نفيسة، فكيف لا يتذكرهم و هو الذي عرفهم عن قرب و عاش في أوساطهم فقاسمهم الأوقات السعيدة و التعيسة فعبر عن آلامهم، و آمالهم فهو اليوم يعيش بين الحيرة و الذكرى.

لا من جاب اخبار سويد ** أنا مضرب راهم نازلين محال

اشتقيت افراسين الكيد *** اتوحشت الشبنى انتل الخالي

من ابعد أن كان سعيد ** حين فارقوني الأجواد تشطن حالي

---

[5] - سياسة التسلط الاستعماري و الحركة الوطنية 1830-1954 -د. يحي بو عزيز - ديوان المطبوعات الجامعية - الساحة الجزائرية بن عكنون ص62

هدف في عيب جديد *** انقسمت على البلدان صرت افصالي

لرجال اخبارهم وين *** أنا مضرب راهم فيه

احمد و محمد الاثنين *** ذكروهم فالصحن الميه

حسراه اللي عاد الزين *** و اللي كنت مونس به[1]

إن ما يلاحظه الباحث و هو يتأمل قصائد ابن السويكت أن هذا الأخير لا يستكنه نفسية الفرد بل يكاد يقف عندها وقوفا سطحيا خاليا من العمق فالشاعر يتساءل في المقطوعة السابقة عن المكان الذي حلت به القبائل بعد القهر و التشريد الذي لحقها من جراء الاحتلال، فهو بحاجة لمعرفة أخبارهم، و قد انتابه الشوق و الحنين إليهم.

إن الماضي السعيد لا يزال حاضرا يؤرقه الشوق، فبعد فراقهم استسلم للهموم و الأحزان، كما نلاحظ تكرار المعاني بدون فائدة كما هو الشأن بالنسبة للبيت الخامس، إذ كان بإمكان الشاعر الاستغناء عنه و الاكتفاء بما تصدر المقطوعة و هو ما جعلنا نشير إلى اكتفاء الشاعر بالقشور و عدم تعديها للجذور لاكتشاف البذور.

أضحى الشاعر يتأمل سلوكات الناس و التي لا عهد له بها من قبل، فالقيم التي عرفها من قبل كالمروءة و الشرف قد زالت و حلت محلها آفات جديدة كالخبث و المكر و الدهاء و كلها هدما و تحطيما للقيم النبيلة التي عرفها المجتمع من قبل.

---

[1]- المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون- اعداد و تقديم جلول يلس - اسقران الحفناوي ص96 (الشاعر ابن سويكت)

ينقل الشاعر الشعبي صورا مشحونة بالانفعالات فالشباب لا يدري كيف يميت ساعاته و أوقاته و يدرج أيامه و أعوامه و كأنه حريص على بلوغ أجله لكي يستتر تحت التراب.

يستغرب الشاعر من حياة الذل و الهوان التي أضحى الأهالي يعيشونها فراح يبحث عن الأسباب و العلل التي أدت إلى هذا الوضع دون أن يهتدي إليها، و لعل مرجع ذلك ثقافة الشاعر السياسية و الاجتماعية المحدودة.

إن الأحكام الجائرة التي فرضها الاحتلال على الأهالي تستدعي وقفة الشاعر و تعبيره بصدق و إخلاص عن ما يعانيه الأهالي من تعاسة في مقارنة بين الوضع الذي آلت إليه الجزائر و ما كانت عليه من قبل.

حسراه يا من تسأل على البهجة قفات *** راها في يد العدا تودي

من بعد العز و النعايم و الخصلات *** راها في فصالها تعدي

احكم فيها الكافر ضيعها و خلات *** رجع سلطانها يهودي

الكفرة طاغيين بالقوة جهلوا *** عاد العربي خدم ليهم عبد الدار

من شدة الاحكام غاشيها ذلوا *** و لا قاضي لا امام تقى لا نعار

اتفقوا ناسها و عافوها هملوا *** ما توجد ثم كان من هو شفار[7].

[7]- المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون- اعداد و تقديم جلول يلس- امقران الحفناوي- ش و ن ت (الشاعر ابن اسماعيل)- ص103

يخاطب الشاعر السائل عن أوضاع الجزائر و ما آلت إليه فهي في يد الأعداء الذين قست قلوبهم فأضحت كالحجارة لا ترق، فبعد العز و الأمان أضحت تكابد المرارة و تتجرع الكؤوس العلقمية، فالحكم أصبح بيد الكافر الذي عاث فيها فسادا فشرد أهلها و حطم بنيانها فهي بيد حكم ظالم غاشم، و طاغية حقود، يكره الحرية و يعشق الدمار و الخراب.

أصبحت قوات الاحتلال تهزأ بجراح الشعب و آلامه، و تسخر من أناته و آهاته و هي سبب بلائه و سر شقائه، ألقت بالشرفاء في غياهب و ظلمات السجون، ففاضت عيون الأهالي بكاء.

اعتز الغاضب بقوته و عتاده، و انقلب صاحب الدار ذليلا مهانا، فمن شدة الأحكام الجائرة تغيرت الأحوال و غاب القاضي العادل و الإمام التقي، و كأن الناس اتفقوا على المكر و الخبث و الدهاء في حين كان التعاطف و التراحم من شيم الأهالي.

من المفارقات التي تخدش الكرامة و تجرح الكبرياء تقلد اليهودي كرسي الحكم إذ أصبحت دعوة الامتثال أمام المحاكم تأتي عن طريق القاضي اليهودي، و هو ما عبر عنه الشاعر صراحة: "رجع سلطانها يهودي". و على القارئ أن يتصور ما يتصف به

يخاطب الشاعر السائل عن أوضاع الجزائر و ما آلت إليه فهي في يد الأعداء الذين قست قلوبهم فأضحت كالحجارة لا ترق، فبعد العز و الأمان أضحت تكابد المرارة و تتجرع الكؤوس العلقمية، فالحكم أصبح بيد الكافر الذي عاث فيها فسادا فشرد أهلها و حطم بنيانها فهي بيد حكم ظالم غاشم، و طاغية حقود، يكره الحرية و يعشق الدمار و الخراب.

أصبحت قوات الاحتلال تهزأ بجراح الشعب و آلامه، و تسخر من أناته و آهاته و هي سبب بلائه و سر شقائه، ألقت بالشرفاء في غياهب و ظلمات السجون، ففاضت عيون الأهالي بكاء.

اعتز الغاضب بقوته و عتاده، و انقلب صاحب الدار ذليلا مهانا، فمن شدة الأحكام الجائرة تغيرت الأحوال و غاب القاضي العادل و الإمام التقي، و كأن الناس اتفقوا على المكر و الخبث و الدهاء في حين كان التعاطف و التراحم من شيم الأهالي.

من المفارقات التي تخدش الكرامة و تجرح الكبرياء تقلد اليهودي كرسي الحكم إذ أصبحت دعوة الامتثال أمام المحاكم تأتي عن طريق القاضي اليهودي، و هو ما عبر عنه الشاعر صراحة: "رجع سلطانها يهودي". و على القارئ أن يتصور ما يتصف به

اليهودي من مكر و دهاء، إذ يستوجب على الفرد الجزائري أن يتوسل إليه بشتى الوسائل لقضاء حاجته.

إن من نتائج سياسة القمع و الإبادة التي سلكتها سلطات الاحتلال بروز ظاهرة الهجرة إلى البلدان المجاورة أو الأوروبية بحثا عن لقمة العيش إذ أصبح العيش في الجزائر جحيما لا يطاق، و قد كان لهذه الهجرة أسبابا متعددة فمن الجزائريين من هاجر خوفا من الأحكام التعسفية التي تزج بهم في غياهب السجون ظلما و عدوانا، و منهم من هاجر حفاظا على دينه و عرضه باعتبار أنه لا يستطيع أن يعيش في ظل حكم كافر أما البعض الآخر فقد فر طالبا للرزق.

لقد كانت ظاهرة الهجرة من الموضوعات التي استوقفت شعراء الملحون لما خلفته من حنين للوطن و ذكريات الصبا و الطفولة في الأرض التي أنبتتهم و هم يرون أنفسهم يهاجرونها محملين بالجراحات الدامية و الذكريات السوداء إذ بقيت صور التعذيب و التنكيل عالقة بأذهانهم لا تبرح مخيلتهم.

لقد استطاع الشاعر الشعبي أن يستكنه نفسية المهاجر الحزينة فيصورها أصدق تصوير و ينقلها بتعاستها.

سالوا دمعاتي من الغربة بالدم *** بد أن فارقنا الوطن اتفكرناه

ابياتي من صناف مثل يكتبهم *** اللي عاشق في بلاده فكرناه

الفراق ابليس غدر و يخدم *** للمعاصين كم من واحد درباد .

الوسواس و جات نفسي تبعتهم *** و اللي ناصت للشرع هما عدياه

الفراق يقول ذا الإنسان اعدم *** ما بقاله طلب نافع يترجاه[8] .

إن الحزن الكبير الذي غمر الشاعر كان نتيجة التجربة المريرة المتمثلة في مفارقة الوطن و الأرض، خاصة حين ينتابه طيف الجزائر و هي بعيدة عنه، فالوطن يصبح في هذه الحالة ملهم شعره و مصدر إبداعه، و بالتالي تصبح ذكريات الوطن هي العجينة التي تتشكل منها القصيدة، فمن شدة تعلق الشاعر بوطنه أوعز هذا الفراق إلى إبليس الذي وسوس له و قد كان بإمكانه البقاء في وطه و الصبر على المكاره كأبناء وطنه.

إن الوساوس هي التي حركت نفسه لمرافقة المهاجرين، إذ أصبح يعيش بدون أمل أو رجاء وسط ضياع مستمر.

و يقف الشاعر وقفة متأنية مع ضميره، فهو لم يهاجر الوطن طلبا للمال و الرزق كما فعل الكثير من الناس و لو أراد ذلك لارتمى في أحضان الاحتلال دون فراق الوطن، فهو صاحب رسالة خالدة، يحمل قلما يقارع به العدو و شعرا يلهب به الهمم، فهو لن

8- دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة 1830-1945م – ش و ن ت - د التلي بن الشيخ – الشاعر: محمد بن عزوز ص548/549.

يجي سكران للحكومة كل اوقات *** يبقى مثل الهبيل يهدي

يأمر يريد يحكم بالنفحات *** لا حجة و لا ثبوت بسدي

حكم الكفار حكم ناقص *** لا حجة فيه و لا دليل

مبني على الغش و الدسايس *** للغدرة طالق السبيل

جبحه خاوي الإيمان يابس *** على المدة مايل العيل

-و الجاهل سيرته عبودي-

غرق في بحر الهوى و المعصيات *** عن قلبه جهله امسدي

معمي الابصار به كثرة الشبهات ***حيمة الشرك و الفسادي

يعبدوا في المسيح غاويهم شيطان ***داروا الآذان بالنواقس

يسكروا لن تتول شيء ضاربهم جان ***و كلام الفحش في المجالس

و الوالد مع أبيه يشرب في الدخان ***و نساهم عاريات نجس[10].

تبرز الصورة التي نقلها الشاعر الشعبي بجلاء سمو الرسالة التي أراد أن ينقلها للمجتمع في ذلك الحقبة من الزمان، و كأنه كان يلعب إلى جانب الشاعر دور المنبه و المعلم المصلح حتى يستطيع كل فرد جزائري أن يدرك التناقض الصارخ بينه و بين هذا الإنسان الأجنبي ليصل إلى نتيجة تتمثل في غريب دخيل.

[10]- المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون- إعداد و تقديم جلول يلس-المقران الحمقاوي -ش و ن ت ص104/105

لقد كان الشاعر بمثابة الرجل الذي يزرع بذور الأمل في نفوس الناس و هو بتنقله للواقع و توعية الناس كان يفرش أرضية المستقبل.

أدرك الشاعر الشعبي أن المرحلة التي يمر بها مجتمعه زائلة فمصير المجتمعات بيدها و إذا ما عزم المجتمع و صمد فسوف تخضع له الأقدار، و الحق ينتزع بفضل الإرادة و الرفض و المقاومة. بهذه العوامل و حدها ينقشع ظلام الليل إلى أمس وتسقط القيود و تسترجع الكرامة.

إن إرادة الشعوب من إرادة الله فوحده القادر على تغيير الأحوال، فالأزمة تلد الهمة و لا يتسع الأمر إلا إذا ضاق، لقد ادلهمت الخطوب في الجزائر و ليس بعد الضيق إلا الفرج، سنة الله في خلقه.

ويح الكفار و اليهود بنو جيفة***من كيد القاهر العظيم

الأيام مداولة علينا مسلوفة***و يبان الحق يا غشيم

بعد الشدة يوجد ربي بالرخفة***لا من في الدنيا مقيم

و يندم الظالم الجحودي

هو ألم إذن يغذيه أمل، فالشاعر رغم الظروف المزرية التي يعيشها مجتمعه، فهو يثق في الأيام مطلقا، و أن الحق سيظهر لا محالة، فهو جزء من مجتمعه ينظر إليه في صمت ثم ينقل المعاناة بأمانة دقيقة.

إن القصيدة الملحونة هي مادة خام تنقل الظواهر الاجتماعية دون تحليل لتترك ذلك لأصحاب الاختصاص من مؤرخين و علماء اجتماع[11].

[11]- نفس المرجع السابق ص 103 للشاعر محمد بن سماعيل

البعد الثقافي في شعر المقاومة الملحون:

إن الحديث عن الثقافة في شعر المقاومة الملحون، لا يمكن أن يكون دون الإشارة إلى ظاهرة اللغة، من حيث أهميتها القصوى، و قيمتها الرئيسية في أي مجتمع.

إن وحدة اللغة هي عنوان وحدة الفكر، و حرص المجتمع على لغته هو حرصه على حريته، فبقدراته و طاقاته ينتزع حريته، و يكون سيد نفسه.

أما إهمال اللغة الأم و التروع إلى غيرها، هو دليل على عدم القدرة على الاستقلال بالنفس، و عدم الاستفادة من الماضي للتخلص من الحاضر.

إن أول عامل أولاد الاحتلال أهمية بالغة هو محاولة القضاء على لغة الشعوب التي يحكمها، فهو يدرك أن القضاء على لغة الأمة هو طمس لهويتها الثقافية. و التاريخية، و بالتالي يصبح الوجود الاستعماري أمرا اعتياديا لا تنغصه المقاومات الشعبية أو الحركات الوطنية.

"إذا كانت اللغة بهذه المنزلة، و كانت أمتها حريصة عليها، ناهضة بها متسعة فيها، مكبرة شأنها، فما يأتي ذلك إلا من روح التسلط في شعبها، و المطابقة بين طبيعته و عمل طبيعته، و كونه سيد أمره، و محقق وجوده، و مستعمل قوته و الآخذ بحقه، فإذا كان منه التراخي و الإهمال، و ترك اللغة الطبيعية السوقية و إصغار أمرها، و تهوين خطرها، و إيثار غيرها بالحب و الإكبار، فهذا شعب خادم لا مخدوم، تابع لا متبوع، ضعيف من

تكاليف السيادة، لا يطيق أن يحمل عظمة ميراثه، مختزئ ببعض حقه، مكتف بضرورات العيش، يوضع لحكمه القانون الذي أكثره الحرمان، و أقله للفائدة التي هي كالحرمان"[1].

إن عنصر الصراع بين لغة مستعمره و أخرى مستعمرة هو أمر طبيعي في المجتمعات التي تخضع للاحتلال، فالامتزاج البشري يؤدي بالضرورة إلى صراع لغوي.

لم يستطع الاحتلال في الجزائر رغم كل المحاولات، و تسخير كل الوسائل من أجل تحقيق هدف القضاء على اللغة، ذلك أن المجتمع الجزائري قد أدرك خطورة التخلي عن لغته، إذ يعتبر ذلك تنكرا للانتماء و بعدا عن الأصالة.

"و قد كان الغازي الأجنبي حريصا على ضمان بناء نفسه، يهدف في إستراتيجيته إلى تفكيك الآخر، و إلى المحو التام للكيان الجزائري: محو اللغة و التاريخ و العادات و التقاليد و كل الرموز الوطنية، فحارب مراكز الإشعاع، و مصادر الثقافة الأصيلة: المساجد و الزوايا"[2]

لقد أسهم الاحتلال من حيث لا يدري، في تمسك الشعب الجزائري بلغته، إذ لم يجبر الشعب الجزائري على تعلم اللغة الأجنبية، بل عمد على تجهيل الشعب، قصد تحويله إلى قطيع من الغنم، همه الوحيد هو السعي وراء لقمة العيش.

---

[1]- وحي القلم- ج3 - مصطفى صادق الرافعي، مجموعة من المقالات الأدبية و النقدية نشرت في المجلات و الصحف ما بين 1934و 1937- ص81.

[2]- أبو القاسم سعد الله الحركة الوطنية الجزائرية - ط3- الجزائر 1983- ش و ن ت - ص58.

"لقد أقبل الأهالي بأبنائهم على الكتاتيب القرآنية ثم على المدارس الحرة، فاتسعت الهوة بين اللغة العربية و الفرنسية، و ازداد الصراع بينهما.

إن اعتماد الاحتلال على سياسة التجهيل يعود لأسباب عدة نذكر منها:

1- كان الاستعمار يحتقر الشعب الجزائري، و يرى أنه ليس أهلا للتعليم.

2- إن تعليم الشعب الجزائري يتطلب أعباء كثيرة كبناء المدارس و تعبيد الطرقات، و تهيئة جيش من المعلمين.

3- إن تعليم الجزائريين يتطلب ميزانية ضخمة"[3].

لم يكن الاستعمار جاهزا لتحمل تبعات كل هذه الأعباء، و هو الذي جاء لاستنزاف خيرات الشعب و ثرواته، فكل ثروات الشعب كانت تحت سلطة مجموعة من المعمرين يتقاسمونها مع سلطات الاحتلال و الشركات الاحتكارية التابعة للنظام الرأسمالي.

كان لزاما علينا في بداية هذا التحليل الإشارة إلى اللغة باعتبارها الوعاء الثقافي لأي أمة من الأمم.

إن الحديث عن الثقافة يجرنا بالضرورة إلى الوقوف عند أهم المراكز الثقافية في عهد الاحتلال.

---

[3]- نهضة الأدب العربي المعاصر 1925-1954 د عبد المالك مرتاض- الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ص18

إن ما يلفت النظر كون الثقافة الفرنسية لم تتمك من الجزائريين تمكنا عميقا إلا في نسبة قليلة منهم، و خاصة سكان المدن الكبرى، الذين كانوا أقرب إلى الفرنسيين المعمرين، و حتى هؤلاء كانوا لا يتكلمون إلا كلمات معدودات لا تعكس أفكار عميقة، و بالتالي كانوا يرطنون بجمل فرنسية و لكن بتفكير عربي و طبع جزائري، ذلك أن الطبع الناشئ في النفس ينبه في الوطني روح التميز عن الأجنبي.

كان الإنسان الجزائري في البادية يكاد يكون منغلقا، بعيدا كل البعد عن ثقافة الاستعمار و لغته بل أكثر من ذلك لم تستفد البوادي الجزائرية من الاستعمار لا ثقافيا و لا حضريا و لا اجتماعيا، ذلك أن الثقافة أو المثاقفة على حد تعبير علماء الاجتماع تستدعي الامتزاج و الاختلاط على قدر المساواة، إذ كان الفرنسيون منطوون على أنفسهم لا ينظرون إلى الشعب الجزائري إلا نظرة ازدراء و احتقار.

أسس الاحتلال الفرنسي مدارس ثلاثة: تلمسان، الجزائر، قسنطينة، إلا أن الذين كانوا يدرسون بها فرنسيون، و حتى بعض الجزائريين الذين كانوا يدرسون بها قد تتلمذوا على يد فرنسيين فلا يرجى منهم الكثير في مجال المحافظة على اللغة العربية و ثقافتها.

عاش الجزائريون الذين درسوا في المعاهد العربية الهلع و الخوف إلى جانب البؤس و الفقر،إذ كانوا يزاولون أعمالهم في المدارس التي كانت تسمى حرة و هي مدارس كان

يمقتها الاحتلال و يحاربها، و كيف لا يحاربها و هي التي كانت تنشر الفضيلة في النفوس و حب الوطن و معاني جلالته و عظمته.

تعتبر المدارس الحرة بمثابة حرب شعواء على المدارس الفرنسية، بل على الوجود الاستعماري برمته، فقد كانت تذكي نار العداوة و الكراهية للوجود الاستعماري.

انتشرت إلى جانب المدارس الحرة، الكتاتيب القرآنية في المدن بصفة عامة و في القرى بصفة خاصة، تقوم بتحفيظ التلاميذ القرآن الكريم و شيئا من المرشد المعين لابن العشير فهم يدرسون على يد شيخ يجلس في ركن الحجرة يحمل عودا من الجريد يستطيع أن يضرب به أي طفل في أي مكان من الحجرة.

إلى جانب عصا غليظة تزيد عن المتر في طرفيها ثقبان ثبت في كل منهما حبل، فإذا أراد الشيخ ضرب طفل، أدخلت قدماه في الحبل ثم لويت عليهما الخشبة فلا تستطيع قدماه على الحركة ثم ينزل عليه الشيخ بالعصا، و قد كانت تدعى –الفلقة– أما الأطفال فقد كانوا يجلسون على حصير متربعين متلاصقين، يأخذ كل منهم لوحة يكتب عليها بعض الآيات القرآنية ثم يقوم بحفظها ليرددها على مسامع الشيخ فيما بعد.

من هنا كانت عوامل المعرفة في عهد الاحتلال ثلاثة:

إما أن يتردد الطفل على المدارس الفرنسية (ليكول) ليتعلم لغة غريبة لا تمت بأي صلة لشخصيته و كيانه أو تاريخه، و إما أن يختلف على الكتاب ليحفظ القرآن الكريم و مبادئ اللغة العربية، أما المدارس الحرة فقد كانت بحق ثورة ثقافية.

كان الشعب الجزائري يعيش في صراع ذاتي عارم بين التخلص من الماضي و الارتماء في أحضان الاستعمار، فلم تكن مهمة هذا الأخير السيطرة السياسية وحدها بل التفرقة و الفساد و تشجيع الشعوذة و الضلال.

أدرك الاحتلال خطورة اللغة العربية و ثقافتها فكان يحاربها بضراوة و يلقى على أهلها أشد أنواع التنكيل و العذاب.

كان طلاب جامعة القرويين بفاس و الزيتونة بتونس يستنطقون من طرف أعوان الاستعمار حين يأتون لقضاء عطلهم بالقرى النائية، إذ كانت تتحول عطلهم إلى جحيم لا يطاق، كما كان يلقى مقرئ القرآن هو الآخر، كل أشكال الذل و الهوان فلا يسمح له بفعل شيء إلا برخصة، و هذه الأخيرة لا تحمل سوى معنى الرفض. أما طلاب المدارس الفرنسية فكانوا يلقون كل الترحاب فآمنوا الجوع و شره و البؤس و ضره.

رغم كل هذا الصراع بين الكتاتيب و المدارس الحرة و الفرنسية، لم يرغب الجزائريون إلا أن يبعثوا أبناءهم إلى المدارس الحرة و يقاطعون في كل الأحوال المدارس الرسمية الفرنسية، و هو أمر طبيعي فقد كان الجزائري لا يرضى بالكرامة و السيادة بديلا.

هكذا كان الصراع بين الثقافتين، و هو لا يزيد الجزائري إلا تمسكا بلغته و ثقافته و نشرها بين التلامذة في كل أرجاء الوطن.

لا يمكن للباحث و هو يتحدث عن الظاهرة الثقافية في الجزائر دون الإشارة إلى شخصيتين لعبتا دورا هاما في بث الوعي و رسم معالم الهوية الجزائرية و هما: الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس و الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

لقد كان نادي الترقي الذي أنشأه الإمام ابن باديس في الجزائر حلقة من حلقات الفعل الثقافي، يؤمه الطلبة و العلماء من كل حدب و صوب، يستمعون إلى المحاضرات و يتحاورون في قضايا الأدب و السياسة و الدين.

إن النص الذي كتبه محمد السعيد الزاهري يصف فيه ما كان يجري في هذا النادي، يعد بحق وثيقة تقدم صورة عن الحركة الثقافية التي شهدتها الجزائر في هذه الفترة.

"...و غص هذا النادي بالوفود القادمين من أطراف هذا البلد، و تنازل الأعضاء من سكان العاصمة و ضواحيها عن أمكنتهم و كراسيهم لضيوفهم و إخوانهم الوافدين، و اكتظ النادي و امتلأت مدرجاته الفسيحة.

اكتظ كل ما فيه من رحاب و أبهاء، و غرف و حجرات، و اكتظت المماشي و الممرات، و امتلأ السلم و كل ما يحيط بالنادي من المقاهي و الساحات. و كان ضروريا الخضوع للأمر الواقع، و استعمال عدة مكبرات للصوت.

و لو أنت أحصيت كل هؤلاء الحاضرين لأحصيت منهم في الأقل خمسة آلاف"[1].

من خلال هذه الشهادة يتضح أن نادي الترقي الذي أسسه الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس كان بمثابة النواة الحقيقية التي انطلقت منها الحركة الثقافية في الجزائر. لقد كان يستقبل رجال الفكر و الأدب من كل ربوع الجزائر، و قد كانت الخطب بمثابة الركائز الأساسية التي يعتمد عليها رجال الفكر و الأدب و ما تثيره في نفوس السامعين من حماسة و وقع و يقظة.

و الحق أن هذا النادي قد لعب دورا أساسيا و هاما في بعث الحركة الثقافية في الجزائر، إذ كان لا يقل أهمية عن بعض الجامعات النشيطة في بعض أوجهها.

---

[1]- نفس المرجع السابق - ص372

كانت الاجتماعات في هذا النادي بمثابة معرضا للتباري الخطابي و الفكري، إذ كان كل خطيب يجهد نفسه و يشق عليها، فيطالع و يحفظ ليجدد معرفه و مكتسباته.

أما مركز قسنطينة فكان ابن باديس هو أول من بعث فيه الحياة و أذاع شهرته التي احتلها في المشرق و المغرب، كان الإمام ابن باديس يدرس الطلبة بمساجده نهارا و يلقى المحاضرات و التوجيهات الدينية ليلا.

ينقل الشاعر ابن عبد الله هذه الصورة بقوله:

و جوامع فيها يا سر اتعلم***سال أهل العلم على الصنايع أتصيب

بخليل القضايا معمرة المحاكم***و الطلبة تذكر فالنبي الحبيب

و عدول بايت ربنا اتزمم***و احرف سال عليها أهل التجارب

و الدنيا مسعودة في زهور و اطراب[5].

يمكن تقسيم الحركة الثقافية في هذه الفترة إلى قسمين:

أما القسم الأول فيبدأ بتأسيس مجلة الشهاب في نحو خمس و عشرين و تسعمائة و ألف، و قد تميزت هذه المرحلة بالخطابة أكثر من غيرها، إذ كان الأئمة يكتفون بإلقاء بعض الدروس التي كان يحضرها الطلبة و كانت على وجه الخصوص في تفسير القرآن و شرح بعض الأحاديث و كان هذا أهم حدث فكري في هذه المرحلة.

[5]- المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون - إعداد وتقديم جلول يلس امقران الحفناوي. ...ش و ن ت - ص50.

أما المرحلة الثانية فإنها تبدأ بإصدار مجلة البصائر الثانية في حدود سبع و أربعين و تسعمائة و ألف، و أهم ما ميز هذه المرحلة هو تأسيس معهد ابن باديس سنة ثمان و أربعين و تسعمائة و ألف، و قد أصبحت قسنطينة في هذه المرحلة أكثر نشاطا في المجال الثقافي لأن تأسيس معهد بهذا الشكل يعد حدثا بارزا في تاريخ الجزائر.

لقد عمدت سلطات الاحتلال على ألا تمنح أي منحة لطلاب هذا المعهد، على أساس العلوم التي كانت تدرس به و اللغة التي كانت تدرس بها، و كل من يدرس اللغة العربية في نظر الاحتلال هو مجرم بالضرورة.

بالرغم من كل العراقيل التي وضعها الاحتلال في طريق هذا المعهد إلا أنه لعب دورا هاما بفضل ما بذله أساتذته من جهد جهيد في تبليغ الرسالة و تأديتها على أحسن وجه.

من هنا يجب الإشارة إلى الرجل الثاني و ما لعبه من دور هام في مدينة تلمسان و هو الشيخ محمد البشير الإبراهيمي.

لقد كانت مدينة تلمسان مركز إشعاع ثقافي هام و نشيط و ذلك عبر مراحل تاريخها الطويل، حيث يصور الشاعر التلمساني هذا الوضع بقوله:

امدينة الجدار أصلها***هي من المدون السيعة

الناس كل من يدخلها***يستحسن الوطن و البقعة

بالعلم مرفوعة و الحكمة اكمالها*** باشعال من اتقان الصفحة

خلى الخنادق و نزلها*** بين البعل و بين القلعة[1].

الحقيقة أن القطب الفعال في مركز تلمسان كان الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، و قد كان الإمام عبد الحميد بن باديس يزوره لماما في هذه المدينة.

لقد كان الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أمة، كان جيلا، كان عصرا، فقد كان الرجل يقضي سحابة يومه في بناء المدارس و المساجد، و سواد ليله في التفكير و التدبير، يخترق الوهاد و النجاد، فما من مكان حل به إلا و بث فيه الروح و غرس فيه شجيرات الوعي و اليقظة، و قضى على الخرافات التي ما فتئ الاحتلال يغرسها في نفوس الجزائريين.

يعبر الشاعر عثمان بوقطاية عن الإشعاع الثقافي الذي تلقاه في عهد الإمام محمد البشير الإبراهيمي بقوله:

تكلم الفحل***عربي ما يحسلش الذل

راجل بطل***أصل من الابراهيمية

قاللهم لاش***هذه الفكرة ما تسواش

ما همش كباش***هذي أمة عربية

ادواها التعليم***و الدين السمح القويم

---

[1]- دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة (1830-1945)م د. التلي ابن الشيخ ، ش و ن ت، الجزائر ، ص 534

باش تستقيم***تخرج من طور الجهلية[7].

و الملاحظ أن هذا المقطع يعبر عن مبادئ الشيخ الإبراهيمي و موقفه من الثقافة و التعليم.

و خلاصة القول أن عظمة ثقافتنا تكمن في عظمة صانعيها، تلك العبقرية التي حملت أمانة الوعي و التثقيف انطلاقا من واقع الحياة اليومية و خصوصياتها.

لقد حمل الشعر الشعبي صورة حقيقية عن ثقافتنا رغم التباعد الزماني مقاربة بين الحلقات و محافظة على التواصل الجيلي.

إن الثقافة هي صورة وجود الأمة، بل هي إحدى ركائزها و ثوابتها القويمة، تنفرد بها عن سائر الأمم الأخرى.

و إذا كانت ثقافتنا ترية، فقد يظن الظان أن الخطاب يدعو إلى التقوقع و الانغلاق و الالتفات إلى الماضي، إنما الغاية المرجوة هي نفض الغبار عن الماضي الثقافي، و الاجتهاد في بعثه وفق ما يتلاءم و روح العصر.

[7] - نفس المرجع السابق، ص 111

المحدودة الغزو الثقافي و الحضاري الذي تعرض له الشعب الجزائري في رؤية دينية صادقة، لارتباط الأجنبي بهدف القضاء على الدين الإسلامي"[2].

إن الشاعر الشعبي، و هو يدافع عن الإسلام بكل ما يحمله من مبادئ سامية عالمية، كانت نتيجة انعدام هذه المبادئ التي أفقدها الاحتلال كل معانيها.

لقد كانت البؤرة التي يشع منها هذا الدين الحنيف، هو المسجد بكل معانيه و وقاره و ما يشعر الفرد الجزائري فيه من أكبر الأسباب التي تقوي فيه الروح و تعوده على ذكر الله في كل حين.

يعتبر الدين الإسلامي هو أساس كل أخلاق فاضلة، و بالتالي فبيئة المسجد هي من أكبر عوامل الإيمان و التقوى.

لقد كان المسجد من أبرز عوامل تربية النفوس و تهذيبها، و من أجل هذه الفوائد اتخذ الفرد الجزائري في عهد الاحتلال المسجد مكانا له، ففيه يحفظ القرآن الكريم أو يستمع للأحاديث على يد أئمة أو فقهاء.

لقد كان العامل الديني من أبرز العوامل التي أذكت نار المقاومة، باسم الجهاد في سبيل الله، فلا غرابة إذن إن وجدنا معظم القصائد التي تنزع نزعة وطنية لها صيغة دينية.

[2] دراسات في الأدب الشعبي، الطاهر الأشهب، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، ص 122.

و لعله من الملفت للانتباه أن القصائد التي تدعوا إلى المقاومة تفرد مساحات كبيرة للجانب الديني، و يكون ذلك في مطالع القصائد. يقول الشاعر عبد القادر الوهراني:

بالحمد نبدا ذا القصة و نعيدها***استغفروا و توبوا يا مسلمين

نوصي على صلاة أحمد لا تنسوها***تفك من القصائص و نصب الوازنين

هو يفك من جهنم و أهوالها***سيد الرجال شافيع المذنبين

سيد الأنس و الجن و سيد أسيادنا***محمد التهامي مصباح الدين

صلوا عليه قد الدنيا باتمامها***صلوا اعليه ألف يا مذنبين

كثروا بالصلاة على الأمجد طه***يوم الخميس و الجمعة و الاثنين

في ليلة القبر كيف يموت بصيبها***ينال النعايم و حورت العين

الفائزون راهم نالوا بأسبابها***بصلاة سيد الأمة جد الحسنين

صلوا عليه قد الدنيا و امحاذها***ما دمنا نشوفوا و احنا حيين[3].

نلاحظ أن الشاعر قبل أن يروي قصة الاحتلال و وحشيته يستهل القصيدة بابتهالات دينية طويلة، تدل عن تمكن العقيدة الدينية في نفسية الشاعر، فالشاعر الشعبي المادح كان بمثابة متنفسا لمعاناة الشعب من القهر و الحرمان في جميع المجالات، من هنا تفنن الشعراء في المدح و الإشادة بآل البيت و على رأسهم الرسول صلى الله عليه و سلم.

[3]- المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون- إعداد و تقديم جلول يلس أسقران الحفناوي- ش و ن ت، الجزائر - ص35.

لقد تفطن الاحتلال لذلك، و تيقن أن الحرب وحدها غير كافية لإخضاع الجزائريين، فاتجه مفكروهم إلى تسليط العدوان على جميع معتقدات الشعب الجزائري، و خاصة سكان الأرياف الذين تقرر إلقاء الرعب في قلوبهم بواسطة تخريب أعز ما يملكون، و هي مساجدهم أو تحويلها إلى كنائس، حيث آزرت الكنيسة المسيحية عمليات الاحتلال بواسطة الجمعيات التبشيرية، و القساوسة الذين نشرهم في كافة ربوع الوطن، للتغلغل وسط الجماهير، مستترين وراء بعض الأعمال الإنسانية مثل معالجة المرضى و مساعدة الفقراء و رعاية اليتامى. إلا أن هذه الأعمال التي ظاهرها خير، تضمر في باطنها شرا كبيرا ترمي في نهاية المطاف إلى تنصير الجزائريين تمهيدا لدمجهم في المجتمع المسيحي.

"لقد رسم الاحتلال لدمج الشعب الجزائري ثلاثة أهداف رئيسية:

1- نجاح الكنيسة في إنجاح السياسة الاستعمارية.

2- أن يكون الجزائريون، الذين يتم تنصيرهم نواة موالية للاستعمار.

3- أن تكون الجزائر بعد تنصيرها نقطة انطلاق لحركة تبشير في إفريقيا كلها"[+]

لقد غاب عن الاحتلال الأجنبي أن الحركة الجزائرية في المساجد و المدارس الحرة كانت تسير بخطى ثابتة، من خلال عنايتها بالبعث الإسلامي، و تجاوز ما حاول احتلال زرعه في

[+] نهضة الجزائر الحديثة و ثورتها المباركة، مبارك الميلي، ج3، 1389-1969، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، ص 11

صفوف الشعب الجزائري، و ذلك بإعادة الصلة بين الفرد و المصادر الإسلامية الصحيحة و السليمة، المتمثلة في القرآن الكريم و السنة النبوية الشريفة.

إن العناصر الأساسية السابقة، هي وحدها الكفيلة بتحويل الفرد الجزائري من السلبية و الضياع إلى الإيجابية في إطار جماعي فهي "وحدها قادرة على أن تبعث كوامن العظمة في الأمة بأسرها، و في رجالها الصالحين لخدمتها"[5].

لقد أدرك الشاعر الشعبي أن العديد من أفراد الشعب الجزائري، أضحى يسير في فلك الاحتلال عن وعي أو لا وعي، من جراء الجهل و سوء التقدير، و حتى بعض الوطنيين الطيبين، أصبحوا أداة طيعة يتلاعب بها الخونة، و يستخدمها ضد مصالحها الحقيقية، و هو ما جعلهم أقرب إلى الخونة دون وعي حقيقي منهم.

يصف الشاعر ابن عبد الله ذلك بقوله:

هنيني يا قلبي من الزمان الخشين***ما بقى جرمه ما بقاو رقبة

الدنيا غدارة هوات بالأولين***وين قريش وين الشجيع عقبة

وين العشرة الأبرار المقربين***بوبكر و عمر و أهل الحديبة[6]

إن هذه الأبيات تؤكد النزعة الدينية التي سيطرت على رؤية الشاعر الشعبي، فالشاعر الشعبي كما تعكسه البيات، على دراية كبيرة بالتاريخ الإسلامي، فهناك إشارة إلى

---

[5]- سلسلة العبقريات (عبقرية عمر) عباس محمود العقاد. دار الهلال – ص47

[6]- المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون. إعداد و تقديم جلول يلس أمقران الحفناوي. ش و ن ت ص 59.

الصحابة رضي الله عنهم، و ما خاضوه من غزوات ضد المشركين، كما يشير الشاعر إلى عقبة بن نافع الفاتح الإسلامي، بإعجاب يفتقر إلى العمق.

و بقدر ما كان الشاعر الشعبي يأسف لهؤلاء الذين باعوا ضمائرهم خوفا أو طمعا بقدر ما كان يفتخر بالذين استشهدوا من اجل إعلاء كلمة الله.

يقول نفس الشاعر:

ضا عوا لي سادات طلبة سنبة***ذرية رحاب شريف من النبي الطاهر

هم راحوا و في فؤادي جات كية***و فرسان المحمول ستين بعد مائة قادر

باعوا الحياة من دار الدنيا***قصدوا الجنة للمقام الاخضر

لهم الطلبا الكل تعطيهم الجزية***و أهل العلم كبير أغمق من البحر[7].

الواضح أن ظاهرة الشهادة في الشعر الملحون، ذات دافعين ديني و وطني، و هي غالبا ما تقترن بالجهاد في سبيل الله، فمفاهيم الإنسان هي التي تكيف سلوكه و تحدد مواقفه:"الشعر الملحون كان يصور دائما الفعل الشعبي، الذي أثارته الوقائع السياسية الهامة، منذ دخول الفرنسيين الجزائر عام 1830 مما أصبح شاهدا على مأساة الشعب

[7]- المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون- جلول يلس-امقران الحفناوي ش و ن ت- ص(1)

الحقيقية، و أثار المقاومة العنيفة من طرف القوى الوطنية و في قلبها نداء إلى نداء الشاعر إلى النضال المسلح"[8].

على ضوء هذه الملاحظات يتضح أن المنطق الصحيح لمقاومة الاحتلال عند هؤلاء الشعراء، ليس هو العمل السياسي المعروف، و إنما الرؤية الإسلامية الصحيحة، دون غيرها.

إن العقيدة الإسلامية السليمة هي أكثر شمولية عند هؤلاء الشعراء، بل أكثر عمقا، و هي الوحيدة الكفيلة بالقضاء على كل ما كان يتقرب به بعض العامة إلى الله، من قبور و أشجار و بخور و ذبائح.

إن البعد الديني عند الشاعر الشعبي، كفيل بإحداث تغيير جذري في حياة الفرد الجزائري، و إعداده إعدادا صحيحا لمواجهة الاحتلال.

ليس الواقع الاجتماعي مجرد واقع احتلال، بل هو واقع تخلف بكل أبعاده، و الاحتلال من أهدافه تعميق الهوة بين الشعب الجزائري و كل ما يمت بصلة إلى الثقافة و التعلم، فهو بالإضافة على كونه قوة أجنبية غازية فهو أيضا أفكار و مفاهيم، و بالتالي فالفعل الوطني عليه أن يأخذ سمة العمل الهادف.

[8]- دور الشاعر الملحون في النضال الشعبي- فلاشير موكور و بوعلاون- المجاهد الأسبوعي- العدد 970-1973 - ص[illegible]

إن القضاء على كل مظاهر التخلف، و رواسب الجهل، و زرع المفاهيم و القيم الصحيحة يكون بمثابة هدم الهدم، و بفضله تتحقق الأهداف التالية:

1- التحرير النفسي للمواطن الجزائري من البدع و الخرافات.

2- حرمان الاحتلال من أسلحته الخطيرة التي وظفها من أجل تكريس الجمود و الركود.

3- إعداد أرضية صحيحة للمواجهة و المقومة.

إن الوطنية الحقيقية كما فهمها كثيرا من الشعراء الشعبيين لعلها تتمثل في العقيدة الإسلامية التي تجعل من المسلمين إخوانا في السراء و الضراء تجسيدا لمعنى احديث الشريف:"مثل المؤمنين في توادهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائره بالحمى و السهر "[9].

لقد أدرك الشاعر عمق مأساة الشعب الجزائري في عهد الاحتلال، و المهمة الأساسية تتمثل في بعث هذا الشعب بعثا يشتمل على اللغة و الدين و الثقافة، فالشاعر الشعبي و إن كان يفتقر للعمق السياسي فإنه كان ملما بمبادئ الدين الإسلامي، معجبا بعلمائه و فقهائه.

أهل الخازن و الكتب الكليا***و في شيخ البخاري تسرد و تنظر

[9]. إحياء علوم الدين - الإمام ابي حامد محمد بن محمد الغزالي - ج2 دار الكتب العلمية- بيروت لبنان- ص 174.

بيت البركة و السر و العناية*** جمعية من كسروه عمره ما يجبره[10].

يقدم الشاعر الشعبي صورة عن الوعاء الذي كان يغترف منه، و هو وعاء ديني بحت، فالقرآن و الحديث الشريف هما الملجأ الحصين الذي يجب أن تفزع إليه الأمة الجزائرية في تلك الظروف الحالكة.

إن المجتمع الذي ينظر إلى حاضره، و يقطع الصلة بينه و بين ماضيه، هو مجتمع مقضي عليه بالفناء، بل عليه أن يقتني آثار الأسلاف، فيستشرق حاضرهم و يستخلص العبر.

لقد أعجب الشاعر بالعلماء و الفقهاء، و الدور الهام الذي يلعبونه في يقظة الأمة، فهو صفوتها، و شمعتها المضيئة، إنهم القدوة التي يجب أن يترسم المجتمع خطاهم، بل يغمر الشاعر الحزن الشديد لضياعهم و فقدانهم، فقد جمعوا بين القيادة و العلم و الجهاد و الشهادة، بل كان الشاعر يراهم خلفاء الأنبياء و الرسل.

يقول الشاعر:

أنتم رجال طلبا دروق غابوا علي*** يعبدو طول الليل و يباتوا مساهر

لا بوهم و لا جدهم مجرية*** و للعلم الشريف الكل سواقر

يقرون المنزول لا تفق الآية*** و ذلك المجمع نعرفه دايما طاهر

[10]- المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون، احمد و تعداد، ظروف يقتني الشعر الشعبي الجزائري، ص(13)

إن المسجد هي نواة نشر هذه الشعائر الدينية، و قد اجتهدت فرنسا في منع المصلحين من الوعظ و الإرشاد في هذه المساجد أو التعليم فيها، و في المقابل عمدت على توظيف عملاء لها من الأئمة المتعاطفين معها، و المكونين لجبهة معادية للإسلام و الوطنية الحقيقية. لقد أدرك الشاعر عبد القادر الوهراني هذا الوضع المزري فقال:

حسراه على الجوامع و على خطابها***و منابر الرحام اللي مرفوعين

حسراه على الصوامع و على آذانها***و على دروسها تم الحزابين

حسراه على المساجد غلقت بيبانها***ضحاو اليوم يا سيدي منسيين

حسراه وين تحافتها وين ديارها***وين البيوت و غرف المحصنين

ولات غير وطبة و منات ارسامها***ماذا يغير المنكر اللعين

سكنوا الروم فيها و تبدل حالها***شهدت غير ذوك اللي منجوسين[12].

هي إحساسات باطنية، و انفعالات نفسية، تبرز بحق صورا حية للأعمال اللاإنسانية التي ارتكبها الاحتلال في أعظم مقدسات الشعب الجزائري، فالأبيات الشعرية حسرات و تساؤلات حول الماضي السعيد و الحاضر التعيس.

لقد وظف الاحتلال الأجنبي كل الوسائل للقضاء على الدين الإسلامي، و لكنه أدرك في نهاية الأمر أنه الصخرة التي تتحطم فوقها كل محاولات المسخ و التجنيس، لذا أدرك

[12]- المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون- من إعداد و تقديم جلول يلس- اسقران الحضاري ش و ر ت ص38.

يقول الشاعر عبد الله:

لا إله إلا الله بها تنتصر***من شهد بها جنته أسعاها

من مات على تبين نال فيها قصر***و سعد نال الدارين تلاها[14]

يقول الدكتور قرشي:"إن المؤمن بالله لا يمكنه أي لون من ألوان الطغيان، فإنه و الإسلام ضدان، و بغير الحرية و الانطلاق لا يستطيع الإسلام أن يعيش.

إن المثالية عميقة إذا لم تتيسر ممارستها، و الإسلام لا يمكن ممارسته في العبودية"[15].

إن الإسلام رسم للمؤمنين طريق الحياة، نظم من خلالها جميع شؤونهم، إذ من واجب المسلم أن يسيطر على محيطه، و إلا ذبلت المثالية و أضحت كالورقة الجافة، و لا يكون المسلم حقا، إلا إذا حدد مصيره و سيطر على محيطه.

لقد كان للدين الإسلامي الحظ الأوفر في سيرة الشعب الجزائري البطولية، و بالتالي فلا نبالغ إن قلنا أن الجانب الديني، كان المحرك الأساسي لكل شكل من أشكال المقاومة، بل أوعز بعض المؤرخين الفرنسيين، إصرار الشعب الجزائري على مقاومة المحتل إلى الجانب الديني، و بالتالي فالمقاومة لا " تعود للوطنية التي كان الشعب متحليا بها، و لا للتصدي للحكم الأجنبي، بل إلى التعصب الديني"[16].

---

[14]- المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون. إعداد و تقديم جلول بلس. اسقران الحضاوي ثم ورقات

[15]- عن ثورة الإسلام- د.أحمد زكي أبو شادي- منشورات دار المكتبة الحياة- بيروت – ص28.

[16]- تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1976 – شارل روبير اجرون-ترجمة عيسى عصفور- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- طبعة 2- 1982 ص73.

يقول الشاعر عبد الله:

لا إله إلا الله بها تنتصر***من شهد بها جنته أسعاها

من مات على تبين نال فيها قصر***و سعد نال الدارين تلاها[14]

يقول الدكتور قرشي:"إن المؤمن بالله لا يمكنه أي لون من ألوان الطغيان، فإنه و الإسلام ضدان، و بغير الحرية و الانطلاق لا يستطيع الإسلام أن يعيش.

إن المثالية عميقة إذا لم تتيسر ممارستها، و الإسلام لا يمكن ممارسته في العبودية"[15].

إن الإسلام رسم للمؤمنين طريق الحياة، نظم من خلالها جميع شؤونهم، إذ من واجب المسلم أن يسيطر على محيطه، و إلا ذبلت المثالية و أضحت كالورقة الجافة، و لا يكون المسلم حقا، إلا إذا حدد مصيره و سيطر على محيطه.

لقد كان للدين الإسلامي الحظ الأوفر في سيرة الشعب الجزائري البطولية، و بالتالي فلا نبالغ إن قلنا أن الجانب الديني، كان المحرك الأساسي لكل شكل من أشكال المقاومة، بل أوعز بعض المؤرخين الفرنسيين، إصرار الشعب الجزائري على مقاومة المحتل إلى الجانب الديني، و بالتالي فالمقاومة لا " تعود للوطنية التي كان الشعب متحليا بها، و لا للتصدي للحكم الأجنبي، بل إلى التعصب الديني"[16].

---

[14]- المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون إعداد و تقديم جلول يلس أمقران الحفناوي ش و ن ت

[15]- عن ثورة الإسلام- د أحمد زكي أبو شادي- منشورات دار المكتبة الحياة- بيروت - ص28

[16]- تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1976 - شارل روبير اجرون-ترجمة عيسى عصفور - ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- طبعة 2، 1982 ص73.

الحقيقة أنه من خلال تحليلنا لكل أبعاد شعر المقاومة، وجدنا الجانب الديني وقودها، دون إغفال الجانب الوطني، و نشير إلى ثقافة الشعب الجزائري السياسية التي جعلته يتمسك بوعائه الديني في مقاومة المحتل" فقد واجه الشعراء الشعبيون بأميتهم و ثقافتهم المحدودة الغزو الثقافي و الحضاري الذي تعرض له الشعب الجزائري في رؤية دينية صادقة، لارتباط الاحتلال الأجنبي بهدف القضاء على الدين الإسلامي"[17].

لقد رأى الشاعر الشعبي أن كل من لم يحمل السلاح في وجه المحتل الغاصب، و يرتمي في أحضان الاحتلال، فقد يتعرض لغضب من الله، و تكون عاقبته وخيمة، بل قد يمسخ، و المسخ هنا هو غضب إلهي في المعتقد الشعبي أي" تحول الإنسان من وضع أعلى إلى وضع أدنى"[18].

لقد إنتاب الشاعر الشعبي الخوف حين رأى تشويه صفاء العقيدة، و نقاء الدين، بعد تفشي الخرافات و البدع، فنصح و حذر، بل حارب كل من خرج عن تعاليم الإسلام" و تفشت إن ذلك، بدع و أباطيل، لا تشوه وجه الإسلام السمح وحده بل تسود وجه البشرية برمتها"[19].

---

[17]- الشعر الديني الجزائري الحديث عبد الله الركيبي م س (ش و ن ت) – ص220

[18]- خليل احمد خليل مسخ الآلهة في الفكر العربي دار الطليعة، بيروت 1986، ط2 ص74

[19]- كتاب الجزائر، محمد توفيق المدني المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 2 1984 –ص 376

من الملفت للانتباه في نهاية التحليل أن اشعر الشعبي الديني الذي كان يستهل بمدح الرسول صلى الله عليه و سلم و الإشادة بالإسلام ينتهي دوما بالدعوة إلى الجهاد و مقاومة المحتل.

بدراسة الأبعاد المختلفة لشعر المقاومة الملحون، نكون قد أنهينا البحث على هذا الشكل، فعشنا مع الشعر الشعبي مواقف متعددة، و مراحل متنوعة، مواقف رسمت رؤية الشاعر للأحداث و تفاعله معها، و مراحل حافظت على نفحات تاريخية مر بها الشعب الجزائري عبر تاريخه الطويل.

لقد أصبح من مسلمات القول، أن الشعر الشعبي الملحون هو أكثر الفنون تعبيرا عن مكنون الوجدان الشعبي، و عن الهوية الوطنية، فقد حافظ على وحدة الشعب و تماسكه في أحلك الظروف التي مر بها.

و الجدير بالملاحظة أن الشاعر الشعبي أمينا و صادقا في نقل الوقائع، و تسجيله للآلام و الدموع، و لا غرابة في ذلك فإنه أقرب إلى مجتمعه و أوثق صلة بنمط معيشته بل أكثر معرفة لأحاسيسه و أفكاره، يسوق القول ممزوجا بالنصائح و الأمثال التي يوجهها لأفراد مجتمعه قصد الموعظة و التذكير.

و يمكن القول أن أساس تماسك الشعب الجزائري ووحدته عند شعراء الملحون، يندرج في إطار الوحدة الدينية، فالإسلام دين الجميع، يوحد بين قلوب سائر المواطنين، و يجسد أوثق الصلات بين أفراد المجتمع.

و مجد أبطالها و دون مسيرتها بكل سلبياتها و ايجابياتها.

إن الروح الوطنية عند الشاعر الشعبي هي التي جعلته يقتحم الهيجاء، فهو لصيق بشعبه، مشدود بحبال ماضيه، فقصائده مستمدة من مقومات الشخصية الوطنية و الدينية، فهذا الاعتزاز بالوطن هو الذي جعل المقاومة تتأجج في قلوب الضعفاء لأن الفقر المدقع و الظلم الشديد يتطلبان تضافر الجهود و تآزر الرجال، خاصة و أن العدو أضحى لا يميز بين القوي و الضعيف، الغني و الفقير، بل أظهر قساوته صوب كافة المجتمع دون استثناء.

لقد الشاعر الشعبي عن المعاناة التي سكنت القلوب الثائرة، فتقاسم الظلم و الحرمان مع أبناء وطنه، إذ أضحى يطلب الموت لتهب له الحياة.

صور الشعر الشعبي ثقل الحياة القاسية التي أجبرت الكثير من المواطنين إلى مغادرة البلاد فرارا من الجحيم الذي تفنن زبانية التعذيب فيه.

لم تكن ظاهرة الهجرة لتقطع الصلة بين المهاجر ووطنه، فظل مشدودا إلى التربة التي أنبتته، متمسكا بقيمه الدينية و العربية، مقاسما بني جلدته الهموم و الأحزان، غير ناسيا ما يعانه أبناء وطنه من حياة شاقة كان هو أحد ضحاياها.

لقد انطلق الشاعر الشعبي من إحساسات باطنية و انفعالات نفسية لينقل صورا حية عن معانات مجتمعه و ما تحمله من شوق و حنين، و تفاؤل و تشاؤم، و حسرة و ألم.

فالأزمة الفردية، أو المصيبة القبلية هي في الواقع خطوب عامة تلقي بظلالها على كل الأماكن مهما تباعدت، فالمصيبة واحدة وإن اختلفت أشكالها، و لهذا كان شعر المقاومة وطنيا حقا، بالرغم من كون القصيدة الملحونة، قد تنحصر في زمكانية معينة.

لقد كان الشاعر الشعبي لا يقف عند الحادثة لينقلها كما هي، بل هو يمزج التصوير الفياض بالتحريض أحيانا، و التشجيع و التذكير أحيانا أخرى، فهو يدرك أن القصيدة سوف تقطع مسافات كبيرة، ليسمعها الناس في القرى و المداشر و الأرياف و تنقلها الصحافة بصدق (أعني القوال أو المداح).

إن المداح هو من أبناء المجتمع ينقل المأثور في الأماكن العامة و خاصة في المناسبات كالأعياد الدينية، بل في الأحواش و البيوت أيضا، مما يخول له نوعا من السلطة على المجتمع.

أما القوال فهو الذي ينقل القصيدة الملحونة فيحفظها و يرويها للناس، مرفقة ببعض الآلات الموسيقية التقليدية.

إن المقاومات الطويلة الأمد التي خاضها الشعب الجزائري طيلة الوجود الاستعماري قد أثرت على حياة الناس الاجتماعية و الاقتصادية، كما أثرت على عواطفهم الدينية و ضمائرهم تأثيرا عنيفا، فكان لابد أن يفرغوا آلامهم و مواجعهم في القصيدة، وبالتالي

كان الشعر الملحون وسيلة للتفريج عنهم، كل ذلك بواسطة رقته، و قدرته على التأثير في النفوس و الضمائر.

و في الختام نرى أن شعر المقاومة الملحون، قد عبر عن فترة الاحتلال الفرنسي تعبيرا أمينا، فواكب الأحداث الوطنية، و عايش تقلباتها السياسية، فكان سجلا تاريخيا صادقا، رغم سطحيته أحيانا، إذ لا ينقص ذلك من قيمته، و بالتالي فلا نبالغ إن قلنا أن المؤرخ و عالم الاجتماع بإمكانهما الاعتماد على هذا الفضاء الفسيح و المتنوع في مجال البحث و الدراسة.

المراجع

- خليل أحمد خليل: مضمون الأسطورة في الفكر العربي دار الطليعة، بيروت 1986، ط2.
- الشعر الديني الجزائري الحديث. عبد الله الركيبي. م س (ش.و.ن.ت).
- كتاب الجزائر، محمد توفيق المدني– المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 2. 1984.
- تاريخ الجزائر المعاصرة 1830-1976 – شارل روبير آجرون ترجمة عيسى عصفور. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر. طبعة 2، 1982.
- عن ثورة الإسلام د.أحمد زكي أبو شادي– منشورات دار المكتبة الحياة– بيروت.
- المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون. إعداد و تقديم: جلول يلس أمقران الحفناوي، ش.و.ن.ت، الجزائر.
- إحياء علوم الدين – الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي – ج2. دار الكتب العلمية بيروت. لبنان
- دور الشاعر الملحون في الكفاح الشعبي– فلادمير سوكورو يوغاتون– المجاهد الأسبوعي العدد 670-1973.
- سلسلة العبقريات (عبقرية عمر) عباس محمود العقاد. – دار الهلال.
- نهضة الجزائر الحديثة و ثورتها المباركة– محمد علي دبوز– ج3، 1389– 1969– الطبعة العربية– الجزائر.
- دراسات في الأدب الشعبي– د. التلي بن الشيخ– الشركة الوطنية للنشر و التوزيع.

المراجع

- دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة 1830-1945م د. التلي ابن الشيخ ، ش.و.ن.ت، الجزائر.
- وحي القلم ج3 – مصطفى صادق الرافعي، مجموعة من المقالات الأدبية و النقدية نشرت في المجلات و الصحف ما بين 1934و 1937.
- نهضة الأدب العربي المعاصر 1925-1954 – د.عبد المالك مرتاض- الشركة الوطنية للنشر و التوزيع.
- الحركة الوطنية الجزائرية: أبو القاسم سعد الله – ط3- الجزائر1983 – ش.و.ن.ت، الجزائر.
- سياسة السلطة الاستعمارية و الحركة الوطنية 1830 1954 – د: يحي بوعزيز – ديوان المطبوعات الجامعية – الساحة الجزائرية بن عكنون.
- "الجماعة بالجزائر أواخر عقد الستينات من ق19" –يحي بوعزيز من مقالة مجلة الأصالة العد33 مايو 1976.
- الأدب الشعبي و الوحدة العربية –فاروق خورشيد – المجلة العربية للثقافة- العدد 28 مارس 1995.
- الاستعمار و الصراعات الثقافية في الجزائر- عبد القادر جغلول- دار الحديث- بيروت 1984.

- القصص الشعبي في منطقة بني الصفراء- عبد القادر خليفي -- رسالة ماجستير نوقشت بمعهد الثقافة الشعبية - 1990/1991.

- الأدب و الفنون الامازيغية الفرقاني الحبيب- مقال في أعمال الدورة الثالثة لجمعية الجامعة الصيفية- أكادير -1988.

- الأمة و المجتمع- مصطفى الأشرف: -- ترجمة حنفي بن عيسى- المؤسسة الوطنية للكتاب.

- المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر- اسماعيل العربي- سلسلة الدراسات الكبرى- ش و ن ت، الجزائر.

- الفتوة عند العرب: عمر الدسوقي- دار النهضة للطبع و النشر- الفجالة- القاهرة- الطبعة الرابعة- 1966.

- بعض النماذج الوطنية في الشعر الأوراسي خلال الثورة التحريرية. العربي دحو، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

- أدب المقاومة في فلسطين المحتلة، غسان كنفاني. -سلسلة غسان كنفاني 14.

- الموطأ -- الإمام مالك ابن أنس- دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع.

- إسلاميات العقاد- مطبوعات دار الشعب 1968.

- طبائع الاستبداد و مصارع الاستعباد- عبد الرحمن الكواكبي.

- الفنون الشعبية- رشدي صالح- القاهرة 1961.

- شعر المقاومة الجزائرية، صالح خرفي - الشركة الوطنية للنشر و التوزيع (بدون تاريخ).

- ثورات الجزائر في القرنين 19 و 20، د.يحي بوعزيز. دار البعث للطباعة و النشر، قسنطينة. الطبعة 1.
- La prise d'Alger 1830 Paris 1929. Edition.
- الكنز المكنون في الشعر الملحون، قاضي محمد. ش.و.ن.ت – دت.
- حوار حول الثورة: المركز الوطني للتوثيق و الصحافة. إعداد و تقديم: د.الجندي خليفة.
- مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر، جمع و تعليق: د.أحمد شرقي أحمد الرفاعي، ط1،من 1402 إلى 1981، دار البعث للطباعة و النشر – قسنطينة.
- أبحاث و دراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة، د.عمار هلال. سلسلة المعرفة.

احتلال مدينة الجزائر

الشاعر : عبد القادر الوهراني

بالحمد نبتد ذا القصة ونعيدها ... استغفروا وتوبوا يا مسامعين
نوصي على صلاة أحمد لا تنساوها ... نفك من النقائص ونصب الوازنين
هو يفك من جهنم واهوالها ... سيد الرجال شفيع المذنبين
سيد الانس والجن وسيد اسيادنا ... محمد التهامي مصباح الدين
صلو عليه قد الدنيا بتمامها ... صلو عليه الف يا مذنبين
كثرو بالصلاة على الامجد طه ... يوم الخميس والجمعة والاثنين
فى ليلة القبر كيف يموت يصيبها ... ينال النعايم وحورت العين
الفائزون راهم نالوا بسبابها ... بصلاة سيد الامة جد الحسنين
صلو عليه قد الدنيا وامحانها ... ما دمنا نشوفوا واحنا حيين

توبوا استغفروا للمولا ... هذا آخر الزمان أدركناه
فيه المحايين وكل بلا ... منا لفوق ما كان الهنا
التعب لطم كل قبيلا ... ما جا الا زمان الفتنا
من عاش حالته لا حالا ... واللي مات ذاك تهنا
هذا الكلام للعقلا ... والعارفين هذا المعنا
امن درى يا فضلا ... حسراه وين هي مزغنا

ولات للنصارى شينين الدين

الايـام يا اخـواني تبدل ساعاتهـا والدهـر ينقلب ويولـي فى الحـين
بعد كان سنجاق البهجة ووجاقهـا الاجناس تخافها فى البـر وبحـرين
امنين راد ربـي ووفـى ميجـالهـا واعطاوهـا اهـل اللـه الصالحـين
الفرانسيس حـرك لهـا وخذاهـا لا هـي ميـاة مركب لا هي ميتـين
بسفاينه يفرص البحـر قبـالهـا كي جـا من البحـر بجنـود قويـين
غاب الحساب وادرك وتلف حسابها الـروم جـاوا للبهجـة مشتـدين

رانـي على الجزائر يا ناس حـزين

الكلب غير رقب للمرسى شافهـا شاف المـدافع لوجهـه منسوبـين
من جهة البحر قـاع الناس تخافهـا بـرج الفنـار منه كـي مذعورين
بـرم سفـاينه وتقـدم قـدامهـا فى سيدي فـرج نـزل ذا اللعـين
سواحل البحر تحكـي لك عطوهـا الاوطان والسهل تم شعاب اخـرين
لـم المحـال فى يوم السبت وجابهـا والسبت مانوا شي من المسلمـين
المومنـين فـزعت هـي وصفرهـا الابـراج والطابـن بالمـومنـين
هبطت الصبايحية تنشد فى باسهـا الاسـلام كان شي من المجـاهـدين
هنـا النـاس تظهر وتبان اخبارهـا مـوت الجهـاد خير من اللي حيـين
حور الجنان راها تزغرت باصواتهـا أبـواب النعـيم للامـة مفتوحـين
المـوت لازمتنـا واحنايـا زادهـا والصبـر لا تكونوا شي خيفانـين

ظل الطراد بالاحـد والاثنـين

انطلقت المحارق ظلت فى اتخاذهـا وتفرقـوا مكـاحلهـم فى اليـديـن
النونية تسيب وقراطس فى يدهـا والدوبلـى يسيب يـا مسلمـين
ماذا ابطال ماتت واخلات ديـارهـا راحـوا تزوجوا مع حورات العـين
لاغـا ابراهيم ركب وفزع فى شمالها والبـاي والخليفة خـذوا اليمـين
للشط وصلوها وأخـذوا عقابهـا ماذا من العسـاكر جـاوا مسعيـين
ماذا من الريوس جابوهم اسيادهـا ماذا من الفـرايس الا منشـوريـن
اتخذت الجـزائر واوفـى ميجالهـا زال الكـلام عنهـا يـا مسلمـين

زال الكـــلام ودرق عنـــــا وافتـــرقت الفـــزوع وراحـــت
مـــا شـــي هكـــذا ظنينـــــا فى المـومنـــين هـــذا فـــــايت
تحسبنـــا علـــى مـــزغنـــه خلـــق كثـــير يبقـــى ميـــت
فى الحفـــــاير والجبـــــانـه شبـــــان للبـــــلا تتفـــــاوت
علـــى مـــوالهـــا تتفـانـــــا يبقـــى الـــدم غـــير مقلـــت
لكـــن بالحـــزن حـــزنـــــا من بعد عـــزهـــا وانهـــــانت
حتـــى اليهـــود فـــرحـــوا لينـــا ونســـاهم الكـــلاب تـــزغـــرت
اعـــلاش شـــايمـــة مـــزغنـــــه حتـــى النســـا معنـــا حـــزنت

سعى بـــلا طراد هذا الكاب خذاهـــا وادى اموالهـــا اخـــوان الشيـــاطين
كيف جـــاز على سطوالي وخذوهـــا ابطبـــول والســـاكر والسنجافـــين
زادوا اخذوا قهوة الابيـــار وديارهـــا وتشبطوا البـــوزريعـــة فى الحـــين
قـــدام الصنـــوبر نـــزل امحلهـــــا وأخذوا برج سيدي مولاي حســـين
فى الليل راحت الروم ضربت طنبورها والمـومنـين تبكـــي يـــا مسلمـين
البعض راح والبعض صبر لطرادها شـــدوه فى الجنـــاين نحو اليومـين
المومنـين هـــامت خـــلات اوطانهـــا وافترقـــوا على البلـــدان مســـاكين
الصبر يـــا امـــة محمـــد لايـــامهـــا هـــذا مـــا قضـــى رب العالـــمين
من درى على الجزائر وعلى تحصانها وعلى وجاقهـــا نزلت فيه العـــين
حسراه وين دار السلطان وناسهـــا صدوا وجاوا ليها اوجـــوه آخـــرين
حسراه وين بـــايـــات مع قيـــادهـــا يـــا من درى على ذوك القصباجيـــين
من درى على ذوك العصات متاعرـــا مـــن ذوك النـــوبـــاجيـــــين
حسراه على السراية وعلى حكامهـــا وعلى مواضع الحكـــم المعـــزوزيـــن
حسراه على ذوك الشواش طغيانهـــا حسراه وين الاتـــراك النصناصـين

حسراه على رجـــال البهجـــة أعطـــاوا مـــاينـــة وانغلبـــــوا
الفرانسيس ولـــد العلجـــــة من كل جـــيه جـــانـــا يـــدبـــوا
كـــي البحر فـــايض على المـوجـــة والـــواد كـــي يجـــي بشعـــابـــه

والوقت كيف قرب وجا ... معلوم كل شيء بسبابه
عم على وطن متيجة ... وجا على الثنية عقبوا
هبط على طريق المرجة ... والناس من الجنايين هربوا
والمومنين ضجت ضجة ... حتى الصفار منها شابوا
نسوان بايتين هراجة ... هذا البلا ربي جابه
يا سامع الدعاء فى الدجا ... الاسلام بالدعاء يطلبوا
تتهنى العباد وتزول فاع أحزانها ... ويزول ذا الظلم على المسلمين
حسراه على المفاته وعلى قضانها ... علمات البلاد مصابح الدين
حسراه على الجوامع وعلى خطبائها ... ومنابر الرخام اللي مرفوعين
حسراه على الصوامع وعلى أذانها ... وعلى دروسها ثم الحزابين
حسراه على المساجد غلقت بيبانها ... ضحاوا اليوم يا سيدي منسيين
حسراه وين تحافتها وين ديارها ... ويـن البيوت وغرف المحصنين
ولات غير وطية ومشات أرسامها ... ماذا يغير المنكر اللعين
سكنوا الروم فيها وتبدل حالها ... شهدت غير ذوك اللي منجوسين
دار النشايرية هدوا حيطانها ... قلعوا الرخام ودرابز منقوشين
شبابك الحديد اللي فى طيقانها ... نجروهم الخوارج عديان الدين
ثاني بلانصة القصارية سماوها ... بعد الكتب فيها والسفارين
الجامع العظيم اللي كان قدامها ... هدوه غير نقمة فى المسلمين
يا سامعين هذا القصة ... خليوا ذا الامر يسرف
حسراه وين ذيك المرصه ... وغنايم الفهاوى وملف
اكثر مات بهم رصى ... بسناجق الحرير ترفرف
قرصان داخلة للمرسى ... قداش من يسير مكتف
للكافرين كانت بخصة ... الاجناس قاع فيها تحلف
منها الجنوس ولات نساء ... من جا يطل يمشي زاعف
بغال يا بني للدرسة ... واللي رجيل منها خايف

شاعوا اخبارهـا فى الايام الفايتين

يـا خـالق العبـاد نتوسـل بطـه ... رب وجيب ليهـا سلطان حنـين
يعـود فى السرايـة هو سلطانهـا ... يحكـم بالشـرع والحـق المبـين
بجـاه الكتـوب وجميع يقـراوهـا ... والسـاجدين للـه والراكعـين
من بعد الف يا الفاهمين تورخناهـا ... والـواو يـاك تكـونـوا فاطنـين
يـا غـافر الذنب اغفـر للي قالهـا ... واغفر ذنـوب عبد القـادر مسكـين
ماذا من المعاصي والسيئة دارهـا ... تعفـو عليـه يـا رب العـالمـين
تغفر ذنوب امـي وابـي واشياخهـا ... والفـايبين واهلـي والحـاضرين
تجعل مقـامهم فى الجنـة وجنانهـا ... بجـاه سيد الامـة جـد الحسنـين

رانـي على الجزائر يا ناس حـزين

مبايعة عبد القادر اميرا - تنظيم البلاد تحت لواء المقاومة

للشاعر : ابن عبد الله

صال الدهر عليها انطوت عليها السبنين
درفت مع الايام خبرها غاب

ما نحسبها الا قليل ما الوالسنين
قصة بن محي الدين مير الاعراب

هذه حالة الايام كانك انت افطين
البعد اينسي والزمان غلاب

قصة بن محي الدين يا الكتاب
اتامل فيها يا فطين خصم

ولد الفطينه هاشمي شريف الانساب
علم وحكمة والجاه والنعايم

حين كبر محي الدين شيخ الاعراب
اعطاه السر وطابعه امزم

نصروه اعرابها وبايعوه الانجاب
قصيا ومقاتا شيوخها وعالم

ناصر للدين احياه بقهر الكافرين
توكل على الله ربنا النواب

بجيوش وخلفاوات دار صوره حصين
اشيوخ امكاف عالنجوع رقاب

بوحميدي الولهاصي لبيب مالمخلصين
والخلادي رقبه وسيف رقاب

في مناصر بركاني الشجيع حصله ودين
وين سالم لا كيفه شجيع ينعساب

البعد اينسي والزمان غلاب

شان وهمه وحكمه وحسن تدبير
عرش امتول وحدودهالا بعيده

من الغرب الليانه للمدينه وسير
عشير مع القلعه البوسعاده

المقطع ومدن زينه وراشقون الكبير
حوش من نم لن نسمى الحداده

مازونه وولهاصه والمدينه البلهير
ومعسكر وتلمسان والسعاده

جوف وعرب وصحراء تلول ومزاب

قسمها خلفاوات الغرابه اثنين
امعسكر وتلمسان سهول واهداب

مليانه للظهره اطلالها عاسين
وجبال المدينه واقفين عالبواب

زيبان ومجانه لنرفها حاميين
والبرج مع القلعة مراقب الزاب

حصن امدن كثيره يا بني عامرين
محروسة محمية وعيشها اطياب

والقلينه دايرها ارشيد محراب

دار انواعر فيها فنون تخدم
ذهروا فيها ذوبوا الحديد تذوب

وجوامع فيها ياسر العلم
سال اهل العلم على الصنايع اسبب

بخليل الفنيا معمره المخباتم
والقلباء تذكر فالنبي العبيب

وعدول بايت ربنا انزمم
واحرف سال عليها اهل التجارب

والدنيا مسعوده فى زهو واطراب

فايمها مخزن الابطال سنديد
يحرك للنطحة من يراه يرهب

ونجوع اعربها اهل راي مفيد
ويح الى عداهم بالمرار يشرب

بهم اتعاشي الشاكرين وانزيد
اسيوف امهند عالبلاء امدرب

اذا مرضوا للعيف كانه يوم عيد
واطنا بير النصره الا اجارب

غرب ونـل ابقى عني الشرق محـروم
البـاي احمـد ثما فـريد عـــازل

غدروا هجموا عنه أعساكر الـــــروم
سـاوا قسنطينة ابقا البـاي واحـل

من عبد القـادر جـاء رسـول معـزوم
يـا بن سـالم بالنجـوع فقـــــل

هدت مجـانه للطـراد مقيـــــوم
والزبـان احـرك بالجيوش عـــول

فرسـان الهـدة هاينـين الارقـاب

معظم هذه الغـزوة فـات الاولـين
حضروا فيهـا كـم من أبطـال صلبـه

الابطال الزينة اعنى اشبال متسابقـين
ابطال انمامشـة فيها فضـاو نـوبـه

اوزلافـن الشجعان للشنـاء طائقـين
وتسمسيلت ايفـاجـوا كـل كـربـة

مـزابة وبوسـلام أخصالهم شايعـين
ونجـوع اعمـوشـه أزولـوا الغلبـــه

ناض الجهـاد ارقى أقوى المشهـاب

لـو نحكى لك عالـى طرى وما صـار
غـــزوات كثـيرة مـا انطيق نحسب

عـد الحسنـه ونجـومهـا الشـوار
وجبـال أعمور وزيدسـا المرقـب

عـد الواد الكبير وعـد نـــان زكـــار
عـد سيدي الشيخ مع أولاد الاشهب

عـد اقليتـه وعـد سـويد الاحـرار
وشلف ومتيجـة وروح غـــــــرب

سيدي ابراهيم تنات فيه الاعمـــار
وغـزوت شقـرانه امحـانهـا انشيب

على الدين الشجعان هانت ارتـاب

يـاسـر هما عيطا انجوع نصروا السلام
هـانوا الاعمـار وجـددوا العـــاهد

اوليســه مشهورين والحشم الكـرام
مناصـر وبنـي حجـه سـور واجـد

أولاد ارياح وفضال واولاد عيسى شهام
مـع عـزوز ومنـاد ونجـع خـــالد

حميان وشافع مع اولاد وهاب

انجـوع الهمة والجاه والثنا والجهاد
بهم هذه البيـداء اضحـات عـــامـر

بني سنـوس وبني زغزوغ والجبـالة
والسياد غمـراوة ومجـاهر والحرابر

ودرقـاوة وشعـانبة وعموشة والامجاد
وبني سيدي يحيى مع أولاد عسكـر

وفنـون وسعدون واولاد يونس الرواد .
وبنـي هنـــني تاريخهـــا اسطـر

عرش امجنـد على الـدوام حـراس
نـاس القمنـة عملـوا الجهـاد وجبـة

فليتـن وبني حـداد قـدار ريـاس
وخلفـون وعبدل يقلعـوا الغلبـة

وبني نـايل ى الجاه عـز الاونـاس
واولاد ارياح اخصـالها اعجـوبه

والابطال الزينه ما تكودها صعاب

كـذا كـذا شجعـان كل مجـاهـدين
وكـذا فرسـان اكلاتهـا التـربـة

همـا سبقوا ليهـا احنا الا تابعـين
سبب تتحقق يـا بنـي الرغبـة

الساجي ساجي كون نسبته من منـين
والجـايح جـايح لو شريف نسبـه

البادى بالحسنات ذاك مالمحسنـين
محـال التيبس ارضعه اللبـة

عمـره ولد الهـامة ابعد ما الطائـرين
ومن مـات على دينـه انـال طوبـا

هنيني يا قلبي من الزمـان الخشـين
مـا بـاقـي حرمـه مـا بقـاو رقبـه

الدنيـا غـدارة هـوات بالاولـين
وين قريش وين الشجيع عقبـة

وبـن العشرة الابـرار المقـربـين
بو بكـر وعمـر واهـل الحـديبـه

وبنه عثمان ومن قبل نصروا الدين
وبنه حيدر امسلك السعيد

البعد انسى والزمان غلاب

صلى الله على الهاشمي سيد البشر
قد حروف السلكه ومن اقراها

من به اهل اليقين كلهم تفتخر
سيد بني عفان الشفيع طه

لا اله الا الله بها تنتصر
من شهد بها جنته اسعاها

من مات على يقين نال فيها قصر
وسعد نال الدارين ى تلاها

ارحم يا رب الفائبين والي احضر
واغفر للناظم كل ما اخطاها

ابن عبد الله مازال ما حفى يذكر
عند اعراب الحضنه وما اقساها

البعد انسى والزمان غلاب

الاوضاع السيئة التي حاقت بالجزائر من جراء الاستعمار

الشاعر: محمد بن باشير

غاب علينا الحق رانا ما نماش ... والباطل غابوا عانه سعود
تاه عليه وعاد بجنود جياش ... والحق انذل ما جبر طاقه عند
الطير الحر راه مقبوض بكماش ... ولد الوساخة ازعار والى من قعد
ولد الغراب راه رقاب اسراش ... والطير الحر قاع بطل من صيد
الطير اللي مدويه منو الاعراش ... انذل اعاد خايف الذيب اسعد
أصماط الحال على الخلايق ما تماش ... قادر ربي ازوق الشور السيد
ى شر اللي ما منك ما نمنماش ... ولو كان اعود لك ى صف اندر
احكم نفسك ذلها لا تتبعهاش ... ولدك بجواد نسمة الخيال وجيد
الهند اللي دكر صاحبي ما يعجباش ... يصدق الماول ما يصدقش حديدو
غرس العرجون ما يجي فيه المشماش ... ناس الهمة أميز معنى عود
ماني زواخ بالكلام ولا فياش ... ماني مشاي للامع قاصد وعد
جبت الكلام والمعاني ما نقراش ... رب الاله هو الداري بعبد
مولى الدنيا قدر والخوف علاش ... من لا لو اللامع فيا وابلاد
اللي قليل طاح قدر ما يسواش ... الكلمة مالحد مسود سعد
بالبغض أتعاند العشرة ما منهاش ... الرجال التافهين انذلوا وانسردوا
ارجال الدين والشره والشجو باعراش ... راهم ى حاله طايهم مايوا بسرود
عدنا متعاندين غير على الشواش ... وينساه اللي يزيغ ويزيغ عبد

يمشوا بـــرا القلوا وسخ الاوباش
زاد الكاس بيـــه مـــن فرعـــه ورد

حتى رمضان ليه قالوا ما طقناش
هتك فرايض المولـــى ليهـــا قصـــد

رانـــا فى حـــال والاموابر ما تماش
زهو الدنيا امرادف يـــوم ابوعـــد

ما ينفع مـــال لا فراســـة لا نهباش
بعد القيالات مسكن حفره وحـــد

تشريد قبيلة بني سويد وما لحق بها من مظالم

للشاعر: ابن السويكت

لا من جاب اخبار سويد ... انا مضرب راهم نازلين محال
اشتقيت الفراسين الكيد ... اتوحشت الشيخي التل الخالي
من بعد ان كان سعيد ... حين قاربوني الاجواد بسهلن حالي
هدف في عيب جديد ... انقسمت على البلدان صرت اقسالي

لرجال اخبارهم وبين ... انا مضرب راسهم بيه
أحمد ومحمد الاثنين ... ذكروهم فالسحن الهيه
حسراه التي عساد الزين ... واللي كنت امونس بيه

لصوان واهل اعبيد ... واهل السدة اللي بيضاء بان بالالي
الطفل بالشي ايميد ... واحد في الدنيا ما بيات رمله خالي
كانوا في الشاف مواعيد ... ترمي مبنيه من انظاره دات قبالي
في كل ليله زهو جديد ... لكن ما همس هناي كثرت اهوالي

سلت على تجمع الرياس ... لا فارس يسلى الاخبار
قالوا حملوا في منسداس ... يلفوا المنازل الاوعار
بالعايد ذكيره اعساس ... غرب الاوحيه في الجدار

تلاوح هبر والقيد ... كل ليله بدوي منه الوحش الجالي
من لا يسوى درهيه ... ما الواني نبكي ويهب بمر الجالي

ايجوني ق يوم سعيد — قادر تقلبهم لي الحي السالي

عصمان ظلم اظلمناه — واحنا درنا فيه العار
رحنا للقايد جبناه — ظاهر من بين الكفار
زدنا هروال اخذناه — اعطينا للترك انهار
يتمنى ق سور جديد — هرس كل امواطنها جديد او بالي

باغي فينا قول جديد — جيب القاده والمنى اسير قبالي
ما نرضاوش لمبحت اليد — ما ننسى غش شعبان حتى التالي
ما نرضى عيش نرميد — ننقطع ولا يبقاش فينا تالي

هول الأحكام الشاهدة والحكام

للشاعر: محمد بن اسماعيل الجزائري

حسراه يا من سال على البهجة وفات
راها ي بعد السدا بهودي

من بعد العز والنعايم والخصلات
راها ي قصاتها بهودي

احكم فيها الكافر ضيعها وخلات
رجع سلطانها بهودي

الكفره طاغين بالقوة جولوا
عاد العربي خديم لهم عبد الدار

من شده الاحكام غاشيها ذلوا
لا قاضي لا امام تقي لا نصار

انعقوا ناسها وعافوها هملوا
ما توجد ثم كان من هو شعار

سرعهم رئيسه بهودي

من الزور قوى الجور والحكام طغات
عما اللي صاب ليه يدي

زعم سول الفساد وانكشفوا عورات
امسى طنبورها منتن

حكم الكفار حكم ردىء ما منروش
لا رحمة فيه لا عدالة

اللي عقله سليم ذا ما يحملوش
حتى لو كان من الجهالة

يحكموا بالنفاق مذهبهم مغشوش
عندهم كي ايد كيف لالا

كفره ميزانها مسدى

يجي سكران للحكومة كل أوقات
يبقى مثل الهبيل يهدى

يأمر كما يريد يحكم بالنفخات
لا حجة لا ثبوت يسدى

حكم الكفار حكم ناقص
لا حجة فيه ولا دليل

مبني على الغش والدسايس
للغدرة طالق السبيل

جبحه خاوى الايمان يابس
على المدة مايل السديل

والجاهل سيرته عنودى

غارق فى بحر الهوى والمعصيات
عن قلبه جهاله امسدى

سمعي الابصار به كثر الشبهات
خيمة الشرك والفسادى

يعبدوا فى المسيح غاويهم شيطان
داروا الاذان بالنواقس

يسكروا لن تقول شي شاربهم جان
وكلام الفحش في المجالس
الولد مع أبيه يشرب في الدخان
ونساهم عاريات ناجس

سيرتهم لوط والثمودي

ويح المسكين من احكام بنوا جيفات
حسراه على ايام سعدي
بعد العيش الرغيد وانزاهت الاوقات
فسدت المدن والبوادي

ويح النصار واليهود بنو جيفه
من كيد القاهر العليم
الايام مداولة علينا مساوفه
وبيان الحق يا غشيم
بعد الشده يوجد ربي بالرخفه
لا من في الدنيا مقيم

وينادم الظالم الجحودي

اللي هو راجح العقل يقرا الايات
يا ويح العبد من عبادي
والجاهل لا تتبعه في المعصيات
لا توقع لهيب بعدي

يا ربي غيث المسلمين
من شر الكفر والكفرة
لا تصرف في أمة أحمد مشركين
ولا تسخر ناس للنصارة

بجـاه اللـى فـراو آيـات السـتين
وبالهـادى صـاحب البشـارة

من حكم الجور والغدر العبـاد اعيـات
راهـا فيـد السـدو تـودى

واغفـر الناظم القصيدة فيما فـات
بن اسمـاعيل كما خفـاش نشـدي

نبكـي يا من تسـال على البهجـة ولات
فى يـد الكـافـر الحقـودى

الفهرس

مقدمة.....أ - ج

المدخل.....01-09

الفصل الأول:

مواقع الشعر الملحون في المقاومة الجزائرية.....10-39

الفصل الثاني:

البعد السياسي في شعر المقاومة.....40-99

الفصل الثالث:

البعد الاجتماعي في شعر المقاومة الملحون.....100-120

الفصل الرابع:

البعد الثقافي في شعر المقاومة الملحون.....121-132

الفصل الخامس

البعد الديني في شعر المقاومة الملحون.....133-147

الخاتمة.....148-152

المراجع.....153-157

الملحق الشعري.....158-177